الدكتور محمد الزحيلي

وظيفة الدين في الحياة

وحاجة الناس إليه

منشورات

جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

وظيفة الدين في الحياة
وحاجة الناس إليه

الدكتور محمد الزحيلي

منشورات
جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

طبعة خاصة

حقوق الطبع محفوظة
لجمعية الدعوة الإسلامية العالمية

1401 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم

1991 ميلادية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الخاصة

الحمد لله الذي أنزل القرآن الكريم ليكون دستوراً دائماً، وشريعة خالدة للناس أجمعين.

والصلاة والسلام على رسول الله، المبعوث رحمة للعالمين، الذي بينَّ شريعة القرآن: قولاً وعملاً، فكراً وتطبيقاً، وأقام المجتمع الإسلامي الأول، وربى الصحابة، كخير جيل للقرآن الكريم، فرضي الله عنهم، وعن التابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: يقول الحق تبارك وتعالى: **﴿ألم ترَ كيف ضرب الله مثلاً، كلمة طيبة كشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تُؤْتي أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذن ربِّها، ويضربُ اللّهُ الأمثال للناس، لعلهم يتذكَّرون﴾** (إبراهيم: 24-25). فقد استخرجنا هذا البحث «وظيفة الدين في الحياة، وحاجة الناس إليه» من استقراء النصوص الشرعية، والمبادىء الإسلامية، والقواعد الكلية، والأحكام الفقهية، وظهر لنا بالدليل والبرهان، والمنطق والعقل، والواقع والتجربة عظمة الوظيفة التي يؤديها الدين في الحياة بما ينسجم مع الفطرة البشرية، والتصور السليم عند الإنسان والكون والحياة وخالق الحياة، مما يقطع بحاجة الناس إليه على المستوى الفردي والجماعي.

وتتوالى الأيام والسنون، وتتعاقب الحوادث والأحداث لتزيد الأمر وضوحاً في «وظيفة الدين في الحياة» وتقدم الدليل بعد الدليل على «حاجة الناس إليه»، وأن العلم والحضارة والتقدم لا يحل محلَّ الدين، لأن العلم سلاح ذو حدين، وقد يستعمل للتدمير والفتك والإبادة إذا لم يلجمه الدين والأخلاق والقيم والرقابة الإلهية، ولذلك تتعالى الصيحات للعودة إلى الدين، والالتجاء إليه، والتفيؤ

بظلاله، والاستئناس بقيمه وأحكامه، واستنشاق عبيره وعطره، ليهتدي الضال، ويؤوب الفاسق، ويستيقظ الغافل، ويستقر التائه، وينعم الجميع بما يحققه الإسلام من سعادة في الدنيا، وينتسبون إلى روضة الإسلام الفيحاء، كما برزت الحركات الفكرية والسياسية والاجتماعية المعاصرة تستعين بالدين، وتطالب بتطبيقه، ليمارس وظيفته، ويحلّ المشاكل والمآسي والصعوبات التي ترزح تحتها الشعوب التي أعرضت عن دين ربها، وحجرت على حرية التدين، فنالها الشقاء، واستشرت فيها الأمراض، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿**فمن اتّبع هُداي فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً**﴾ (طه: 123)، وقوله تعالى: ﴿**فمن تبع هُداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ (البقرة: 38).

وقد رأينا آلاف الأفراد، والعديد من المجتمعات تلوذ في السنوات العشر الأخيرة بالدين، وتلجأ إلى حماه، لتتنوع الأدلة والبراهين على «وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه، ليكون ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ويتأكد لنا مصداق قوله تعالى: ﴿**ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة...**﴾.

وفي ذات الوقت نشعر بالحسرة من استمرار بعض الناس على الغفلة والإعراض، ومن سوء الفهم والتطبيق أحياناً لحقائق الإسلام وجوهره ونظمه وأحكامه.

نسأل الله تعالى أن يردنا إلى ديننا رداً جميلاً، فهماً وسلوكاً، لنتذوق طعم الإسلام، وحلاوة الإيمان، وهذا لا يظهر بشكل سليم إلا بعد الالتزام وحسن التطبيق، مرددين قول الحق تبارك وتعالى: ﴿**وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعُوه، ولا تتّبعُوا السُّبُلَ فتفرَّق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون**﴾ (الأنعام: 153) ﴿**قل: هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان الله وما أنا من المشركين**﴾ (يوسف: 108)، والحمد لله رب العالمين.

د. محمد الزحيلي
وكيل كلية الشريعة للشؤون العلمية
بجامعة دمشق

مقدّمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم.

والصلاة والسلام على إمام المتقين، وسيد المرسلين، وخاتم الأنبياء، سيدنا محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين.

ورضي الله تبارك وتعالى عن صحابة رسول الله، الغر الميامين، الذين آمنوا به ونصروه وعزروه، ثم حملوا مشعل النور والهداية، والتزموا منهج الله القويم، وحقّقوا خلافة الله في أرضه، فكانوا هداة مهديين، غير ضالّين، ولا مضلّين، فرضي الله عنهم وعن العلماء العاملين إلى يوم الدين.

وبعد:

فقد خلق الله الإنسان، وجعله خليفة له في الأرض، ولم

يخلقه عبثاً؛ ولم يتركه سدى، ولم يدعه فريسة لغواية الشيطان وضلاله ووسوسته التي بدأها في غواية آدم وحوّاء في الجنة، ثم هدّد بها في الدنيا، ولكن الله تعالى اصطفى الإنسان، وفضله على سائر الخلق، وسخر له ما في الكون، وتولاه بالهداية والرشاد وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأعلن له ذلك منذ اللحظات الأولى لاستقراره على الأرض، فقال تعالى: ﴿قلنا: اهبطوا منها جميعاً، فإمَّا يأتينكم مني هدى، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ البقرة/٣٨ ـ ٣٩.

وقال تعالى في نفس المعنى: ﴿قال: اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو، فإمَّا يأتينكم مني هدى، فمن اتّبع هداي فلا يضل ولا يشقى. ومن أعرض عن ذكري فإنَّ له معيشة ضنكاً، ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ طه/١٢٣ ـ ١٢٤.

وقال الله سبحانه وتعالى، مبيناً الحكمة من ابتعاث الرسل، وإنزال الكتب: ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، إلى صراط العزيز الحميد﴾ إبراهيم/١.

وقال الله تعالى في وصف القران الكريم: ﴿إنَّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشِّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنَّ لهم أجراً كبيراً. وأنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ الإسراء/٩ ـ ١٠.

ويلاحظ القارىء لهذه الآيات الكريمة، والمتأمل فيها، والمتدبر في معانيها أنَّها لم تقيّد بوقت معين، ولا بزمان خاص، وإنَّما جاءت مطلّقة عن التوقيت، وهذا يعني أنَّها صالحة لكل زمان ومكان، ولكن الجهل بالدين اليوم، والبعد عن أحكامه، وعدم الإيمان به، وتحرّك أعداء الله في الأرض ضد الدين، جعل هذه المفاهيم غامضة، وحُرِّف فيها، وغيّر في دلالاتها، وكادت أن تصبح غريبة حتى عند أهلها.

كما يلوح في الأفق الآن، ويدور في أذهان الناس، صورتان متقابلتان، ينشأ عنهما نتيجة خطيرة.

أمّا الصورة الأولى: فهي فكرة قاتمة عن الدين، وشبهات داكنة عن مبادئه وأحكامه، وتاريخ أسود عن بعض حقب الدهر، وهذه الصورة ليست من الحقيقة في شيء، وليست طبيعية، ولكنّها مصطنعة اصطناعاً، وتعلوها الرتوش الشيطانية، والهندسة الخيالية، وتحمل شارة الاستيراد من الخارج، وفوق كل ذلك فهي صورة بتراء لبعض الأفكار الدينية المحرفة، أو العصور المظلمة.

وأمّا الصورة الثانية فإنَّها صورة برّاقة لمّاعة، تتجلّى في التقدم العلمي ومعطيات الحضارة والإنتاج الصناعي الحديث والتقنية الفنيّة والمكتشفات العظيمة والاختراعات المتلاحقة والوسائل المتعددة؛ التي يسخرها الإنسان في حياته ومواصلاته، وتزيل عنه متاعب الماضي في مختلف اتجاهات

الحياة، مما يخلب الأنظار، ويشغل الفكر، ويحجب كثيراً من البسطاء عن كشف الحقيقة، والتعمّق في النظرة، والبحث عن المتاعب والمشاكل والأمراض النفسية والعقلية والجسمية التي ترافق هذه الصورة، أمّا النتيجة التي يخرج بها كثير من الناس، وخاصة من الشباب والمثقّفين، فهي أنّ الدين «موضة» قديمة، وقد ولى زمانها، ولم يبق لها فائدة، وليس للإنسان حاجة إليها، ويمكن بسهولة ويسر الاستغناء عن الدين، بل يتطاول أكثرهم إلى وجوب الاستغناء عن الدين، وفصله عن الدولة، وإبعاده عن مجال الحياة، ويسرف بعضهم فيقول: إنَّ الدين والتدين ظاهرة سيئة، وعلامة على التخلّف، وهو سبب البلاء والتأخر والجمود في كثير من البلدان، ويتبرع هؤلاء بتقديم البرهان والدليل على صحة ما يقولون بأنَّهم أصبحوا في عصر العلم والمدنية والحضارة، وأنَّ العلم هو أساس كل شيء، ويحقق للإنسانية كل شيء، ويحل ـ بل يجب أن يُحَل ـ محل الدين.

وبياناً للحقيقة والواقع، وقياماً بالواجب والدعوة، ورداً على هذه التساؤلات والشبهات، بدأت بكتابة هذا البحث الموجز لبيان وظيفة الدين في الحياة، ومدى حاجة الناس إليه، وهل يمكن للعلم أن يحلّ محل الدين، ويحقق للبشرية آمالها وأحلامها؟.

وقبل البدء في العرض قدمتُ فصلاً عن مفهوم الدين الذي ننشده ونعنيه، ثم أتبعته بفصل آخر عن بواعث التديّن الفطرية

لمعرفة العلاقة بين الدين والفطرة، ولذلك جاء الكتاب في خمسة فصول، وهي:

الفصل الأول: مفهوم الدين.
الفصل الثاني: بواعث التدين الفطرية.
الفصل الثالث: وظيفة الدين في حياة الفرد.
الفصل الرابع: وظيفة الدين في حياة المجتمع.
الفصل الخامس: الدين والعلم.

أمّا الخاتمة فقد خصّصتها لبيان حاجة الناس إلى الدين، مع تلخيص النتائج التي وصل إليها البحث.

وقد سعيت في العرض أن أجمع بين الدراسة الفكرية النظرية الفلسفية العقلية، وبين الدراسة الشرعية التي تعتمد على الأدلّة الشرعية والبراهين النقلية من كتاب الله وسنة رسوله، كما حرصت على اقتباس أقوال بعض العلماء المعاصرين الذين بلغوا الذروة في اختصاصاتهم المتعددة.

أسأل الله العليَ القدير أن يسدد خطانا، وأن يوفقنا للعمل فيما يحبه ويرضاه، وأن يهدينا سبلنا، وأن يلهمنا رشدنا، وأن يجمع على الخير والحق شملنا، لنكون ممن يستمعون القول فيتّبعون أحسنه.

الدكتور محمد الزحيلي
أستاذ مساعد في كلية الشريعة
بجامعة دمشق

دمشق
١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م

الفصل الأوّل

مَفهُوم الدّين

نريد أن نبيِّن المفهوم الصحيح للدين، ونميّزه عن المفهوم الخاطىء الشائع بين الناس، لتكون دراستنا مبنية على الأساس السليم والمعنى الدقيق. ونقدّم لذلك بالتعريف اللغوي.

تعريف الدين لغة:

تتعدّد معاني الدين في اللغة، وأرى أنَّ هذه المعاني تنحصر في إيجاد علاقة بين طرفين، الطرف الأول يتمتع بالسلطان والقوة والملك والجبروت والحكم وحق القهر والمحاسبة والمكافأة والمجازاة، والطرف الثاني يقف في الجانب الأخر بالخضوع والطاعة والذل والاستكانة والعبادة والورع، والعلاقة بين الطرفين هي الدين أو المنهج والطريقة التي تحدد علاقة الأول بالثاني وبالعكس[1].

(١) أقرب الأمثلة لتوضيح هذه المعاني وبيان هذه العلاقة كلمة «الدَّيْن» فإنَّه =

وكلمة الدين لها أربعة معان، تدلّ على العلاقة السابقة التي أشرنا إليها[1]، وهي:

١ ـ القهر والسلطة والحكم والأمر والإكراه على الطاعة واستخدام القوة القاهرة فوقه، من دانه ديناً، أي ملكه وحكمه وساسه ودبره وقهره، وأذلّه واستعبده، وحاسبه وكافأه، فالفعل المتعدي بنفسه يمثل الطرف الأول الذي يتمتع بمعنى الملك والتصرف والحكم والقوّة والاستعلاء والسلطان والتدبير والعزّة.

٢ ـ الإطاعة والخدمة والعبودية والتسخر لأحد والائتمار بأمره، وقبول الذلّة والخضوع تحت غلبته وقهره، من دان له: أي أطاعه وخضع له أو ذلّ أو استكان أو عبد، فالفعل المتعدي باللام يمثّل الطرف الثاني المتّصف بالخضوع والطاعة بالاستكانة والعبادة، ويظهر الارتباط والتلازم بين المعنيين،

= يفهم منها فوراً علاقة بين طرفين، أحدهما دائن، وله حق المطالبة، والآخر مدين، وعليه التزام الدفع وواجب الأداء، الأول يطالب، والثاني مطالب، والمال المطلوب هو الدَّيْن، والقواعد التي يتبعها الدائن والمدين في الدفع والسداد والتوقيت هي الشريعة والقانون، والفرق بين الدِّين بالكسر والدَّيْن بالفتح أنَّ أحدهما يتضمَّن في الأصل التزاماً مالياً، والآخر يقتضي التزاماً أدبياً، ومثل كلمة البيع فإنَّها تدلّ على علاقة بين طرفين هما البائع والمشتري ومحل العلاقة هو المبيع ونظام البيع.

(١) انظر: القاموس المحيط: ٤/٢٢٥، المصباح المنير: ١/٢٧٩، مختار الصحاح: ٢١٨، الدين للدكتور محمد عبد الله دراز: ٢٦، النهاية، لابن الأثير: ٢/١٤٨، المصطلحات الأربعة في القرآن، أبو الأعلى المودودي: ١١٦.

فإن قلنا دانه فدان له: أي قهره على الطاعة فأطاع، وحكمه فخضع لحكمه.

٣ ـ الدين هو الشرع والقانون والطريقة والمذهب والملّة والعادة والتقليد، من دان به، أو دان بالشيء: أي اتخذه ديناً ومذهباً، أي اعتقده أو اعتاده، ودان بالإسلام ديناً أي تعبد به وتديّن، وهو الدين أو الملّة، فالفعل المتعدي بالباء يمثّل الطريقة أو المذهب الذي يسير عليه المرء نظرياً وعملياً، وهو المنهج الذي يتّبعه في علاقته أو عبادته أو خضوعه إلى الحاكم والسيد والمالك.

٤ ـ الدين هو الجزاء والمكافأة والقضاء والحساب، ومنه قول العرب: كما تدين تـدان، أي كما تصنع يصنع بك، وقال تعالى حكاية عن الكفّار: ﴿ أإنّا لمدينون ﴾ الصافات /٥٣، أي هل نحن مجزيون ومحاسبون، ومن أسماء الله تعالى: «الديّان» أي الحاكم والقاضي، وقيل هو القهّار.

تعريف الدين اصطلاحاً:

تعرّض علماء الاجتماع والفلسفة والأديـان إلى تعريف الدين، وكانت أنظارهم متفاوتة، واتجاهاتهم متباينة، ويغلب على أكثرهم الفهم الضيق للدين، والنظرة الظاهرية له، دون أن يتعقّموا في المدلول الشامل الصحيح للدين، أو يلحظوا الآثار العملية له، ولذلك نلاحظ أنَّ كلًّا منهم عرف الدين من وجهة نظره الخاصة، ونذكر هنا بعض تعريفات علماء الغرب

للدين، ثم نبيِّن الاستعمال الشائع الذي نتج عن موقف الغرب من الدين، لنصل إلى التعريف الصحيح للدين عند علماء المسلمين، ونخلص إلى بيان الخصائص والميزات التي تتّسم بها العقيدة الدينية.

أولاً ـ تعريف الدين عند الغربيين:

ظهرت تعريفات كثيرة للدين في الغرب، وكانت تنطلق كلها من نظرتهم إلى الكنيسة الكاثوليكية وتاريخها في العصور الوسطى، وموقفها من الملوك والحكّام والإقطاع والرق والحروب والحجر على العلم والاكتشافات، ثم موقف الثورة الفرنسية وما تبعها من الكنيسة ورجال الدين والأفكار الدينية، ثم تبني العلمانية ومحاربة الدين وطرد رجال الدين الذين كانوا يمثلون السلطة الروحية والمادية العليا، ويوجهون السياسة والتشريع والقضاء في العهد السابق(١).

ومن خلال هذه الصورة ظهرت التعريفات المتباينة عن الدين، وهي تعريفات كثيرة جداً(٢) نقتصر على ثلاثة نماذج منها:

١ ـ يقول جويوه في كتاب «لا دينية المستقبل»: «الديانة: هو تصور المجموعة العالمية بصورة الجماعة الإنسانية،

---

(١) انظر: دراسات في النفس الإنسانية: ٢٢٨، الدين والحضاره الإنسانية، الدكتور محمد البهي: ١٠، الدين: ٨٢.

(٢) انظر هذه التعريفات في كتاب الدين، لدراز: ٢٩ وما بعدها.

والشعور الديني هو الشعور بتبعيتنا لمشيئات أخرى يركِّزها الإنسان البدائي في الكون».

فهذا التعريف يمثّل النموذج الذي ينكر جوهر الدين في وجود الخالق المبدع، أو الإله المعبود، ويتّجه إلى الاستخفاف والاستهزاء والسخرية من الدين، وأنّه تصور مثالي للإنسانية، أو اختراع لمشيئات من العقل البدائي، ويتفق مع أوجست كونت الذي يرى أنَّ العقلية الإنسانية مرّت بثلاثة أدوار، هي: دور الفلسفة الدينية، ثم دور الفلسفة التجريدية، ثم دور الفلسفة الواقعية، فجعل التفكير الديني يمثِّل الحال البدائية التي تخلّت عنها البشرية، وتجاوزتها دون أن تعود إليها، وهذا ما ينادي به فرويد الذي يقسم حياة البشرية إلى ثلاث مراحل سيكولوجية: الأولى مرحلة الخرافة، والثانية مرحلة التدين، والثالثة والأخيرة هي مرحلة العلم[1].

٢ ـ يقول شلاير ماخر في «مقالات عن الديانة»: «قوام حقيقة الدين شعورنا بالحاجة والتبعية المطلقة».

وهذا تفسير نفسي محض، يصوِّر النقص في الذات الإنسانية، وأنَّها تتطلع إلى الكمال، ولذلك فإنَّه يعرف جانباً بسيطاً من الدين، ولكنّه يتنكر لوجود المعبود، ويتجاهل حقيقة الدين وأثره في النفوس والعقول، ووظيفته في التشريع والأخلاق.

---

(١) الدين: ٨٥، شبهات حول الإسلام: ٩.

٣ ـ يقول الأب شاتل في كتاب «قانون الإنسانية»: «الدين هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق: واجبات الإنسان نحو الله، واجباته نحو الجماعة، وواجباته نحو نفسه».

وهو أرقى تعريف للدين عند علماء الغرب، وهو يمثل طبيعة الدين النصراني بعد انحسار الكنيسة عن الحياة والسلطة، وتحديد مهمّتها في أماكن العبادة، وأنَّ وظيفتها تنحصر في صلة الإنسان بربّه من الناحية الروحية، وصلته بالمجتمع من الناحية الخلقية.

وهذه التعريفات الثلاثة تمثّل وجهات النظر الرئيسية للدين في الغرب، فالقسم الأول ينكر الدين والإله أصلاً، والقسم الثاني يلجأ إلى الدين عند الحاجة والضرورة، وفي حالات الضعف والمرض، والعجز وقصور العقل والنفس عن تعليل حوادث الكون، والقسم الثالث يفهم الدين من الناحية الروحية والخلقية، وهو أسمى مظهر للتديّن عندهم وهو ما يدفعنا لبيان المعنى الشائع عن الدين.

الاستعمال الشائع للدين:

ظهر في الغرب على ألسنة وأقلام المتديِّنين معنى خاص للدين، وهذا المعنى إمّا أن ينظر إليه من جهة الشخص المتديِّن، وإمَّا أن ينظر إليه كظاهرة اجتماعية، فقالوا:

«الدين هو الحالة النفسية والعقلية والوجدانية التي يتَّصف بها شخص معين، ونسميها التدين، أو هو مجموعة المبادىء

والقيم التي تدين بها أمّة أو جماعة اعتقاداً أو عملاً، وتظهر في كتب ومراجع وروايات، وتتمثل في عادات خارجية وآثار اجتماعية».

وأصبح المقصود بالتربية الدينيه عندهم تربية العواطف والمشاعر التي تبعث في نفس المتدين احترام الطقوس الدينية، والمشاركة في المناسبات الدينية، والاحترام لرجال الدين وشعائره والتردّد على أماكن العبادة، والتبرّع بشيء من المال، والقيام ببعض الحركات والمظاهر، والنطق ببعض الألفاظ والعبارات، ومن يفعل ذلك فهو المتديِّن العظيم، والتقيّ الصالح، والورع المقرّب، دون أن تتصل هذه الصفات بحياته وأعماله وقوانينه.

.وهذا الاستعمال الشائع يظهر على ألسنة من يدّعي التديّن، ويستخدمه أعداء الدين لتقييد مجال الدين وتحديد مفهومه، والدافع إلى تناوله بالذكر أنه تسرّب إلى وطننا، وانتشر بين أبناء أمّتنا، واستخدم سلاحاً في وجه الدعوة والدعاة، وتستمر المحاولات الحثيثة لفرضه على الإسلام والمسلمين معاً.

وإذا كان هذا الاستعمال صحيحاً وصادقاً على الدين المسيحي في الغرب، وقد يتّفق مع النصرانية التي تفقد التشريع والنظام في أصولها، فإنَّ الخطأ فيه يظهر من ناحيتين:

١ ـ محاولة تعميم هذا الاستعمال الخاص على الدين بمعناه العام، وأنَّه شامل لجميع الأديان السماوية والديانات الأرضية. مع الاختلاف الواسع بين هذه الديانات، والبون الشاسع بين حدود كل منها.

٢ ـ التعمّد في نقل واستيراد هذا المفهوم لتطبيقه على أمّتنا وأبناء جلدتنا، وفرضه على ديننا الحنيف، والسعي بجد ونشاط على إرغام الإسلام على ارتداء هذا اللباس الضيق القصير، ليبقى الدين في إطار المسجد، وفي حدود الأخلاق، وفي منطقة الشعور والوجدان والضمير، دون أن يكون له أثر في الحياة، أو تطلّع إلى الأمام، أو مشاركة في التشريع.

تعريف الدين عند علماء المسلمين:

اشتهر على لسان علماء المسلمين تعريف الدين بأنَّه:

«وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات»، ويقولون في تعريف آخر:

«وضع إلهي، سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم إلى الصلاح في الحال، والفلاح في المآل».

ويصرح التعريف الإسلامي بثلاثة أمور جوهرية، وهي:

١ ـ أنَّ الدين وضع إلهي، وليس من إيحاء النفس، أو تخيّل العقل، أو تنظيم الإنسان، فالله سبحانه وتعالى أنزل الدين الحنيف، وأوحى بمبادئه وتعاليمه وقيمه، تحقيقاً لقوله

تعالى: ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً، فإمّا يأتينكم منى هدى، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ البقرة/٣٨، وأنَّ الله سبحانه الذي خلق الإنسان واختاره خليفة في الأرض لم يخلقه عبثاً، ولم يتركه سدى.

٢ ـ أنَّ التعريف ينص على أنَّ الدين عقيدة وشريعة، أو عقيدة ونظام في الحياة، فهو ليس مجرّد اعتقاد، بل هو الاعتقاد الحق، والإيمان الصحيح الذي لا يشوبه شيء، وهو ليس مجرد شريعة ونظام فحسب، بل هو نظام ربّاني، وشريعة إلهية لضمان الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

٣ ـ بيان الربط بين العقيدة والعقل، وأنَّ الدين متّفق تماماً مع العقل السليم، وأنَّه لا منافاة ولا مناقضة بين الدين والعقل، خلافاً لكثير من علماء الاجتماع والفلسفة والأديان الذين يتعمدون الفصل بين الدين والعقل، أو الدين والعلم، وأنَّ الدين محصور بالأمور الغيبية، أو بما وراء الطبيعة، وأنَّه لا شأن للدين والعقيدة في نطاق الحياة، ومجال المادة، والعلوم التجريبية، فالدين الإسلامي على العكس من هذا تماماً من الناحيتين النظرية والعملية أو العلمية والتاريخية.

المفهوم الصحيح للدين:

وهنا نصل إلى المفهوم الصحيح للدين الذي استعمله القرآن الكريم، بالإضافة لاستعماله للدين بالمعاني اللغوية السابقة، فالقرآن الكريم استعمل الدين بمعنى عام شامل

جامع، ويريد به النظام الكامل، نظام الحياة الذي يذعن فيه المرء لسلطة عليا، ثم يقبل إطاعته واتباعه، ويتقيد في حياته بحدوده وقواعده وقوانينه، ويرجو في طاعته العزّ والفوز بالدرجات العليا وحسن الجزاء، ويخشى في عصيانه الذلّة والخزي وسوء العقاب[1].

وقد وردت آيات كثيرة تستعمل كلمة الدين بها المعنى العام الكامل الشامل لجميع نواحي الحياة الاعتقادية والفكرية والخلقية والعملية، نذكر بعضها:

قال تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرِّمون ما حرّم الله ورسوله، ولا **يدينون دين الحق**، من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ التوبة/ **٢٩**.

وقال تعالى: ﴿وقال فرعون: ذروني أقتل موسى، وليدع ربّه، إني أخاف أن **يبدل دينكم**، أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ غافر/٢٦.

وقال تعالى: ﴿إنَّ **الدين عند** الله **الإسلام**﴾ آل عمران/ **١٩**.

وقال تعالى: ﴿ومن يبتغ **غير الإسلام ديناً** فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ آل عمران/٨٥.

(١) المصطلحات الأربعة في القرآن: ١٢٦.

وقال تعالى: ﴿ هـو الذي أرسل رسوله بالهدى **ودين الحق** ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون ﴾ التوبة/ ٣٣.

وقال تعالى: ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنـة، ويكون **الدين كلّه لله** ﴾ الأنفال/ ٣٩.

وقال تعالى: ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليـظهره على الـدين ولو كـره المشركـون ﴾ التوبـة/٣٣، الصف/ ٩.

فالمفهوم الصحيح للدين الدي نقصـده، والذي نـريد الحديث عنه، هو هذا المعنى الاصطلاحي الذي نصّ عليه القرآن الكريم، وصرّح باسمه، وبيّنه للناس جميعاً ﴿ إنَّ الـديـن عـنـد الله الإسـلام ﴾ ثـم أكّـده تـعـالـى في آيـة أخرى وميّـره عن غيره، وبيّن أنَّ من يتبـع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه: ﴿ ومَنْ يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ فالدين الذي نعنيه، والذي نحن بصدده، والذي نريد أن نبيّن وظيفته في الحياة وحاجة الإنسانية إليه هو الإسلام بنظامه الشامل ونظرته الكليّة الجامعة الذي فهمه بكل وضوح وتحديد، صاحب الرسالة ﷺ، والذي تمثّله صحابة رسول الله، والذي طبّقه وعمل به والتزمه المسلمون والعلماء العاملون عبر التاريخ.

خصائص العقيدة الدينية:

لاحظنا أنَّ الدين علاقة بين طرفين يخضع أحدهما للآخر

ويقدّسه ويبجّله ويطيعه ويعبده، ولكن مظاهر الخضوع والتقديس والتبجيل والعبادة لا تنحصر في الدين فقط، بل تتعداه إلى أمور كثيرة كالعادات والتقاليد ومبادىء الأخلاق والقيم الإنسانية والنواميس الكونية والغرائز والميول البشرية، فما هي الفوارق التي تساعدنا على التمييز بين الدين وغيره؟ مع الملاحظة المهمة التي يجب التنبيه عليها باستمرار، ويجب التذكير بها دوماً، وهي أنّنا قصدنا بالدين معناه العام الجامع الشامل الذي يغطي نظام الحياة عامة، وهذا يعني أنّ التشريع والأخلاق والعبادة... تصبح جزءً من العقيدة، ويكون اتباع أحكام التشريع، والالتزام بالأخلاق والمواظبة على العبادة جزءًا من الدين، وتنطبق عليه الميزات والخصائص الثابتة للعقيدة الدينية.

إنَّ الميّزات التي تجعل من الخضوع ديناً أم لا، تنقسم باختصار إلى قسمين، وهما:

آ ـ صفات الشيء الذي يقدّسه المتديّن.

ب ـ طبيعة هذا الدين[1].

ويمكننا تفصيل ذلك بشرح الخصائص المهمّة للعقيدة الدينية، وهي:

١ ـ إنَّ الإنسان يقدّس الشرف والعرض والحرية والكرامة،

---

(١) راجع كتاب الدين، للمرحوم الدكتور عبد الله دراز: ٣٦ وما بعدها، دراسات في النفس الإنسانية، للأستاذ محمد قطب: ٢١٤.

ويخضع لقوانين الكون، وسننه الثابتة، ولكن هذه الأمور لا تسمّى ديناً، لأنّها معانٍ عقلية مجرّدة وتصوّرات شائعة مبهمة، أما المتدين فإنّه يهدف إلى تقديس حقيقة خارجة عن نطاق الأذهان؛ وإنْ كانت لا تعبّر عنها الأذهان، أو لا تستطيع تصوّرها، فالتقديس الديني يتّجه إلى ذات مستقلّة قائمة بنفسها، وتكون العقيدة الدينية صلة بين ذات وذات، لا بين ذات وفكرة مجرّدة.

٢ ـ إنَّ الذات التي يقدّسها المتديّن شيء غيبي لا يدركه بعقله ووجدانه، وبتعبير آخر: إنَّ العقيدة الدينية تختص بالإيمان بالغيب، ولذلك عبّر الوثنيون أنَّ العبادة للأحجار والأوثان والأشجار... ليست لذاتها، وإنَّما لأنَّها ترمز لقوّة غيبيّة، أو أنَّها ترمز لسر غامض يستحق التقديس، وقد نقل القرآن حكاية عنهم ﴿ ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ الزمر/٣، وهذه الميزة الغيبيّة هي التي دفعت بعض العلماء إلى وصف الدين بأنّه إيمان بما وراء الطبيعة «ميتافيزيك» وكأنَّهم لم يعرفوا من الدين إلاّ هذه الناحية.

٣ ـ إنَّ الذات المقدّسة ذات قوّة فعّالة مؤثّرة في غيرها، كما أنّها ذات قوّة عاقلة[1] تدرك أهدافها، وتتّجه بالفعل إلى

---

(١) تنبيه مهم: هذا التعبير، في حق الله تعالى، ونحوه مما تكرّر في هذا الكتاب مثل: «عقل واعٍ»، «قوة خالقة مبدعة»، «إرادة منظمة».. مما ورد في كتب الفلاسفة من تسمياتهم وإطلاقاتهم، أما المسلم فيلتزم بالأسماء والصفات الواردة حصراً في القرآن والسنّة، ويقف فيها على =

تحقيق أغراضها بمحض إرادتها ومشيئتها، بخلاف نواميس الكون فإنَّها منفعلة، وأنَّ الطبيعة بمعنى مطبوعة وهي اسم مفعول تحتاج إلى فاعل، وبخلاف بعض المواد التي تؤثر في غيرها، فإنَّ تأثيرها عفوي دون شعور منها، ولا اختيار لها في صدوره كالمغناطيس والجاذبية.

إنَّ هذه القوّة العاقلة المدبّرة لها اتصال معنوي بنفس المتديّن وبالناس جميعاً، وليست بعيدة عنهم أو منقطعة عن حياتهم، بل ترعى شؤونهم، وترعى آمالهم وآلامهم، وتسمع دعاءهم ونجواهم، وتكشف السوء عنهم متى شاءت ذلك، ولها عناية مستمرّة بشؤون العالم الذي تدبّره.

٥ ـ إنَّ هذه القوّة المعبودة هي قوّة علوية سبحانية قاهرة، يخضع لها المتديّن، ويقف منها العابد موقف الآمل المتواضع، يطلب منها الرضى، ويشفق من غضبها وسخطها، بخلاف الساحر والعالم الروحاني والعالم الطبيعي فإنَّهم يسخِّرون آلهتهم التي يأنسون بها ويرجعون إليها، يسخرونها فيما يطلبونه، وينوون القيام به، وينظرون إليها نظرة مساواة معهم، أو نظرة استخفاف واستخدام لها، كما يسخِّر الكيميائي عناصر الطبيعة لمنافعه وأغراضه.

يقول الدكتور دراز: إنْ شئنا أن نضرب مثالاً حسياً لهذه

= المأثور، فالله سبحانه هو القوي المدبر، الخالق، المصوّر، وهو ذو القوة والإرادة... ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾.

الأهداف المختلفة قلنا: إنَّ قبلة العالم المادي تحت قدمه، لأنَّ القوى التي هو منها بسبيل قوى عمياء صمّاء، يحسّ بها ولا تحسّ به، وإذا دعاها لا تستجيب له، وقبلة العالم الروحي هي من وجه ما في مستوى أفقه، لأنَّها وإن كانت أقدر منه على التصرّف، إلاّ أنَّها قوى حيّة عاقلة مثله، ولكنّها من وجه آخر هي دونه، لأنَّها تحت يده، متصرّفة بأمره، منقادة إلى تعاويذه وطلاسمه، فالكل ينكسون أبصارهم إلى الأرض، والمؤمن يرفع رأسه إلى السماء[1].

٦ ـ العنصر الذاتي النفسي: ويضاف إلى الخصائص السابقة في موضوع العقيدة الدينية عنصر ذاتي نفسي يتميّز به المتديّن عن غيره، وهو الخضوع الشعوري الاختياري للمعبود، فالمتدين يقدّس ويمجّد معبوده عن طواعية واختيار، لأنه يستحق ذلك، ويقوم بالعبادة والتعظيم متى كان مقتنعاً بدون إكراه، ولذلك بيّن القرآن الكريم أنَّ الصلاة كبيرة وشاقّة وصعبة إلاّ على المتّقين، قال تعالى: ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة، وإنَّها لكبيرة إلاّ على الخاشعين، الذين يظنون أنَّهم ملاقوا ربهم، وأنَّهم إليه راجعون ﴾ البقرة/ ٤٥ ـ ٤٦، لأنَّ الطاعة تخرج من القلب عن يقين وقناعة، وإذا وجد شيء من الإكراه غير المباشر كالتهديد بالعقاب فإنَّه يؤدي إلى مظهر من مظاهر التعظيم، وصورة من صوره

(١) الدين، لدراز: ٤٤.

المادية، ولكنه لا يتولّد عنه حقيقة التعظيم ولا صورته القلبية، وهذا يفسّر لنا الحكمة الإلهية بعدم الإكراه على الدين: ﴿ لا إكراه في الدين، قد تبيّن الرشد من الغي ﴾ البقرة/٢٥٦.

وهذا الخضوع الشعوري الاختياري مفقود في خضوعنا لنواميس الطبيعة الشعوري وغير الشعوري، كالسقوط من أعلى حسب قانون الجاذبية، والبعد عن الشمس والكواكب، ومقدار الضوء والحرارة والضغط الجوي الذي نرزح تحته، وقانون الشيخوخة والهرم والموت الذي نخضع له أيضاً.

٧ ـ وأخيراً فإنَّ خضوع المتديّن لمعبوده يشعره بالترفيه عن القلب، ويفتح أمامه الآفاق، وينزل عن ظهره الأثقال، ويجعله يتطلّع باستمرار إلى الأمل وتفريج الكروب دون أن يتسرّب إلى نفسه اليأس، أو يفرض عليه الكبت، أو يسد أمامه الأمل أو يحدّ من عمله، بل يكون المتديّن دائماً بين الرغبة والرهبة، أو بين الأمل والحذر والرجاء. كما سنبيّنه في وظيفة الدين في حياة الأفراد.

هذه الصفات تمثّل خصائص العقيدة الدينية، وتميّزها عن غيرها من العقائد والمبادىء والأفكار، ولذلك يلخّص الدكتور دراز مفهوم الدين الصحيح فيقول:

«الدين هو الاعتقاد بوجود ذات ـ أو ذوات ـ غيبيّة علوية، لها شعور واختيار، لها تصرّف وتدبير للشؤون التي تعني

الإنسان، اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة، وفي خضوع وتمجيد». ويقول:

«وبعبارة موجزة: هو الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة، هذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية، بمعنى التديّن، أمّا إذا نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجة فنقول: هو جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القوة الإلهية، وجملة القواعد العملية التي ترسم طريق عبادتها»[1].

وخلاصة هذا الفصل أنّنا نريد التمييز بين مفهوم الدين عند الغربيِّين، والمفهوم الشائع للدين الذي تسرّب إلينا من الغرب، وبين المفهوم الصحيح للدين الذي بيّنه أسلافنا، وأنَّ المقصود في بحثنا هو الدين الذي اختاره الله تعالى في القرآن الكريم ورضيه لنفسه وارتضاه للبشرية ورفض قبول غيره، قال تعالى: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ المائدة/٣، ﴿ إنَّ الدين عند الله الإسلام ﴾ آل عمران/١٩، ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ آل عمران/٨٥.

---

(١) الدين، له: ٤٩، وانظر دراسات في النفس الإنسانية: ٢١٤.

الفصْل الثاني

بوَاعِثُ التّدَيّن الفِطريّة

عرفنا مفهوم الدين الصحيح، وبيّنا الخصائص التي تميّز الفكرة الدينية عن غيرها من مظاهر الخضوع والتقديس والاحترام والالتزام، وقبل أن نبيِّن وظيفة الدين في حياة الفرد والمجتمع نريد أن نتعرّف على حقيقة الدين وجوهره، وطبيعة الإِنسان ومعدنه، لنكشف العلاقة القائمة بين الدين وفطرة الإِنسان، وهل هي علاقة مؤقتة محدّدة سطحية ثانوية يمكن الاستغناء عنها عند تقدّم العلم وتغيّر الأزمان؟ أم هي علاقة فطرية غريزية ذاتية أصلية، لا يمكن التخلي عنها أو الفصل بينهما؟.

إنَّ الإِنسان هو الإِنسان، له كينونة ثابتة لم تتغيّر طبيعته، ولم تتبدّل جبلته، وأنَّ ينابيع التديّن في القديم لا تزال

موجودة في الحاضر، وستبقى كما هي في المستقبل، وإن تغيّرت أشكالها وصورها وأنواعها.

والتديّن فطرة في الإنسان، وهو جزء من كيانه ووجوده، مثل بقية الغرائز التي تتكوّن منها النفس منذ خلقت البشرية، وحتى تقوم الساعة، كغريزة الجنس وحب البقاء والطعام والشراب[1]، وأنَّ التخلي عن إحدى الغرائز شذوذ وانحراف بالفطرة والإنسان، وهذا الانحراف والشذوذ متوفر في بعض الناس لتأكيد صفة النقص، وأنَّ الكمال لله وحده، ولأنَّ النفس مجبولة من الطين أو الشهوة ومن الروح، وإنَّ الإنسان جبل في الأرض ليتطلع إلى السماء، فإن ظهر الإلحاد أو الكفر أو الانحراف عن الدين، فهذا دليل على جنوح الإنسان إلى الأرض والشهوة، ودليل على بعده عن الروح والسماء، أي هو تغليب لجانب على جانب في حياته، أو هو إعمال لشطر واحد في فطرته وإهمال للشطر الثاني.

جاء في معجم لاروس للقرن العشرين: إنَّ الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدّها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وإنَّ الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية[2].

وهذا معنى كلمة الفيلسوف اليوناني سقراط عندما قال:

---

(١) يقول الدكتور دراز رحمه الله: فالإنسان حيوان متديّن بطبعه، قياساً على قولهم: إنَّه حيوان مفكّر، أو حيوان مدني بطبعه، انظر: الدين، له: ١٠.

(٢) الدين: ٨٤.

«كما يشعر الإنسان بحاجته الماسّة إلى الهواء والماء والطعام، تشعر روحه أنَّها في حاجة مبرمة أيضاً إلى غذاء معنوي إلهي، وهذا الشعور هو في عرفنا الدين الذي اهتدى إليه أول إنسان».

ومن الثابت تاريخياً أنَّ فكرة التديّن لم تفارق البشرية، ولم تخلُ منها أمّة من الأمم القديمة والحديثة، لأنَّها نزعة أصيلة ملازمة للناس جميعاً، لذلك قال بعض العلماء: إنَّ الحضارات المادية في التاريخ كان مبعثها الدين، وإنَّ المجتمع الأوروبي الحديث لم يتخلَّ عن الدين، وإنّ شعار العلمانية الذي رفعته أوربا هو خداع وتضليل، «وأنّ أوربا الحديثة، وأوربا المعاصرة، مجتمعاتها ودولها مجتمعات ودول دينية، وهي مجتمعات ودول أخذت في الاعتبار منذ قيامها وتكوينها حماية الدين والذود عن المسيحية»[1].

والبحث عن أمور الدين ـ وأهمها وجود الخالق ـ لم ينقطع لحظة في تاريخ البشرية، وقد يوصل البحث إلى الغاية المطلوبة والهدف الصحيح، وقد يضل عن الطريق، ويشغل ببعض الظواهر، ويتوقف عند بعض العقبات ليحطّ العقل البشري رحاله، ويتّخذ عقيدة ضالّة وديناً ممزوجاً بالخرافات والأساطير، وهنا تسمو الديانات السماوية التي أنزلها الله

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب الدين والحضارة الإنسانية، للدكتور محمد البهي: ١٢، ٥٢، وما بعدها.

تعالى، وأوحاها إلى أنبيائه ورسله، لتبيِّن للناس العقيدة القويمة والدين الحق[1]، ويبقى في السمو والارتقاء الدين السماوي المحفوظ، الذي لم يتغير ولم يتبدل، ولم تعبث به الأيدي ولم يأته الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إنَّه الإسلام الذي نبحث عنه ونبيِّن وظيفته في الحياة، وحاجة الإنسانية إليه.

الأدلّة الفلسفية على الغريزة الدينية:

ويستدلّ علماء الأديان والاجتماع والفلسفة على كون التديّن فطرة بالاستقراء والاستنتاج، للكشف عن بواعث التديّن الفطرية، ويمكن إيجازها بما يلي:

١ - إنَّ نزعة التديّن ظهرت من غريزة التطلّع إلى الغيب ومحاولة معرفة الحقيقة الرابضة وراءه، وعدم الوقوف عند حدود الواقع الحسّي، والعودة إلى التأمّل في المسائل الأزلية: لِمَ خلق الإنسان؟ ومن خلقه؟ ولِمَ خلق الكون؟ ومتى؟ ومن خلقه؟ وما هو مبدأ الإنسان؟ وما هي غايته وهدفه؟ وإلى أين يسير؟ وما هي نهاية الكون؟ وما هو مصير الإنسان؟ وماذا بعد الموت؟ وغير ذلك من الأسئلة التي تدفع الإنسان إلى الإيمان بالله، وإلى البحث والنظر والسعي والعلم والاكتشاف، وهذا التطلّع والتأمّل في هذه القضايا الغيبيّة كانت ولا زالت وستبقى الشغل الشاغل للإنسان،

---

(١) دراسات في النفس الإنسانية: ٢١١.

ويريد الوصول إلى اليقين أمام مشكلات الكون الكبرى، مهما تقدمت به المدنية وتعدّدت الاكتشافات، وترقى العلم، لأنَّ العلم عاجز قطعاً عن الإجابة عن هذه الأسئلة، وأنَّه مقيّد بكشف نواميس الكون دون أن يغيّر منها شيئاً، وأنَّ مجاله محدّد في النواحي المادية التي وضعت تحت حواسه، كما سنرى بعد قليل.

يقول سانت هيلير: «هذا اللغز العظيم الذي يستحث عقولنا: ما العالم؟ ما الإنسان؟ من أين جاءا؟ من صنعهما؟ من يدبرهما؟ ما هدفهما؟ كيف بدءا؟ كيف ينتهيان؟ ما الحياة؟ ما الموت؟ ما القانون الذي يجب أن يقود عقولنا في أثناء عبورنا في هذه الدنيا؟ أي مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة؟ هل يوجد شيء بعد هذه الحياة العابرة؟ وما علاقتنا بهذا الخلود؟ هذه الأسئلة لا توجد أمّة، ولا شعب، ولا مجتمع، إلّا وضع لها حلولاً جيدة أو رديئة، مقبولة أو سخيفة، ثابتة أو متحولة...»[1].

٢ ـ العجز في الإنسان وحاجته إلى قوّة جبارة تنقذه من المهالك وتعينه وقت الشدة، ويستغيث بها وقت الضيق، فتنجده وتخرجه من المآزق، وتقدّم له العون عند الحاجة، وهذا العجز موجود في كل نفس، ويلمسه الإنسان في نفسه، ويسمعه من غيره.

---

(٢) الدين: ٨٤.

سأل رجل الإمام جعفراً الصادق عن الله فقال: ألم تركب البحر؟ قال: بلى، قال: فهل حدث لك مرّة أن هاجت بكم الريح عاصفة؟ قال: نعم، قال: وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة؟ قال: نعم، قال: فهل خطر في بالك وانقدح في نفسك أنَّ هناك من يستطيع أن ينجيك إنْ شاء؟ قال: نعم، قال: فذلك هو الله.

هذا الشعور النفسي بوجود المنقذ من الهلاك، والمنجي من الهم والغم والحزن والكرب، إمَّا أن يبقى مع الإنسان فيكون مؤمناً، وإمَّا أن يتنكر لـه، ويجحد هـذا الفضل، ويعرض عن ربه، فيكون كافراً وملحداً وضالاً، وقد صوّر القرآن الكريم في آيات كثيرة، ومواطن مختلفة هذه النماذج من النفوس، منها:

قال تعالى: ﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر، حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيّبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنّوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين، لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين، فلمّا أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ﴾ يونس/ ٢٢ ـ ٢٣.

وقال تعالى: ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضلّ من تدعون إلاّ إياه، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم، وكان الإنسان كفوراً ﴾ الإسراء/٦٧.

وقال تعالى: ﴿ وإذا مسّ الإنسان ضرٌ دعا ربه منيباً إليه ثم

إذا خوّله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل، وجعل لله أنداداً ليضلّ عن سبيله ﴾ الزمر/ ٨.

وقال تعالى: ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله، ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون، ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون، ليكفروا بما آتيناهم، فتمتعوا فسوف تعلمون، ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم، تالله لتُسألنّ عما كنتم تفترون ﴾ النحل/ ٥٣ ـ ٥٦.

وقال تعالى: ﴿ أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويجعلكم خلفاء الأرض؟ أإله مع الله؟ قليلاً ما تذكَّرون، أمّن يهديكم في ظلمات البر والبحر، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته؟ أإله مع الله؟ تعالى الله عما يشركون ﴾ النمل/ ٦٢ ـ ٦٣.

وقال تعالى: ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخُفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين؟ قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴾ الأنعام/٦٢ ـ ٦٣.

هذه الآيات الكريمة تكشف هذا الإحساس النفسي الباطني عن عجز الإنسان، وتذكر بعض الصور الدقيقة التي لا مهرب منها لكل فرد من إقراره بالعجز، والتجائه إلى القوى الغيبية الخالقة المبدعة التي تتصرف بالكون يلجأ إليها لتنقذه من المهالك، ويستنجد بها في أحلك الظروف للنجاة،

ويعطي الوعود والعهود بالتوبة والإنابة والطاعة والخضوع، ثم لا يلبث أن ينسى حاله، وينقض وعده، ويتيه في غيه وضلاله إلّا من رحم ربك، وأعمل عقله، واحترم نفسه، وفكّر في ماضيه وحاضره ومستقبله، فهو على العهد باق، وبالعقيدة والإيمان بالله ملتزم.

يقول الأستاذ محمد قطب: «يحسُّ الإنسان بالعجز إزاء الكيان الكوني من حوله، يبدأ العجز من لحظة الميلاد ويستمر إلى لحظة الموت، ولا ينقطع فيما بين الميلاد والموت، وإن كان يأخذ صوراً مختلفة في كل سن وكل طور من أطوار النمو الجسمي والنفسي. . .، ويظل يكبر ويكبر معه العجز حتى يستوي على أشده، وما يزال يحسّ بالعجز في أكبر مجالاته، العجز عن تحقيق كل ما يريد تحقيقه، والعجز عن معرفة كل ما يريد معرفته، والعجز عن السيطرة على كل ما يريد السيطرة عليه. . .» ثم يقول:

«حقاً إنه يحقق أشياء كثيرة، ويعرف أشياء كثيرة، ويسيطر على أشياء كثيرة، ولكن هذا لا ينفيه، ولا ينفي عن خاطره شعور العجز، فهو يريد أن يحقق كل شيء، ويعرف كل شيء، ويسيطر على كل شيء. . . وأشدّ ما يقف أمامه عاجزاً رغبة الخلود، والرغبة في معرفة الغيب الذي لم يحدث»[1].

٣ ـ ومن دوافع الفطرة إلى التدين الإحساس بالخوف

(١) انظر: دراسات في النفس الإنسانية: ٢١٩، القرآن والطبائع النفسية: ٥٦.

والرهبة أمام هذا الكون العظيم وما يجري فيه، مما يحرّك أحاسيس الإنسان، ويوقظ مداركه، ويدفع عقله ـ بالغريزة والفطرة ـ ليبحث عن خالق الكون، فيأنس به، ويطمئن قلبه عنده، ويهدأ روعه وخوفه، ويأمن جانبه، ويعقد أواصر التقرّب له، ثم يقدِّم الطاعة والعبادة لعظمته، وهذا هو الدين.

وقد لفت القرآن النظر في آيات متعدّدة إلى هذا الكون العظيم وما فيه من أجرام ومشاهد ومخلوقات تستحق الوقوف أمامها، ويقف الإنسان عندها مشدوهاً عاجزاً لا يملك حراكاً ولا عطاء، بل جاءت بعض الآيات الكريمة تتحدّى مظاهر الكون والطبيعة والإنسان على أن تخلق نفسها أو تخلق غيرها أو تملك النفع أو الضرر لنفسها أو لغيرها.

قال الله تعالى: ﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون، إلهكم إله واحد ﴾ النحل/ ٢٠ ـ ٢٢.

وقال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿ إذ قال لأبيه: يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴾ مريم/ ٤٢.

وقال تعالى: ﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون، أأتّخذ من دونه آلهة إن يُردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ﴾ يس /٢٢ ـ ٢٣.

وقال تعالى: ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ يونس/١٨.

وقال تعالى: ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها، ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر، كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات، لعلّكم بلقاء ربكم توقنون، وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين، يغشي الليل النهار، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد، ونفضِّل بعضها على بعض في الأكُل، إنَّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ الرعد/٢ ـ ٤، ثم قال تعالى: ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار ﴾ الرعد/٨، ﴿ هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشىء السحاب الثقال، ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، وهم يجادلون في الله، وهو شديد المِحال ﴾ الرعد/١٢ ـ ١٣.

ويقول تعالى: ﴿خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم، وبث فيها من كل دابّة، وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زوج كريم، هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه، بل الظالمون في ضلال مبين ﴾ لقمان/١٠ ـ ١١.

ويقـول تعـالى: ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق؟ أفـلا تذكرون ﴾ النحل/١٧، ﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ﴾ النحل/٢٠.

ويقول تعالى: ﴿ يا أيُّها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالقٍ غير الله يرزقكم من السماء والأرض، لا إله إلاّ هو، فأنى تؤفكون ﴾ فاطر/٣.

ويقول تعالى متحدياً البشر في الخلق والإعادة: ﴿ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم بـه؟ ﴾ الأنـعـام/ ٤٦.

ولنتأمّل هذه المحاورة مع الكفار في قوله تعالى: ﴿ وهو الله لا إله إلاّ هوله الحمد في الأولى والآخرة،وله الحكم وإليه ترجعون، قل: أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة، من إله غير الله يأتيكم بضياء؟ أفلا تسمعون، قل: أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فـيه أفلا تبصرون؟! ﴾ القصص/ ٧٠ ـ ٧٢.

ويقول تعالى: ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ولم يتَّخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً، واتّخذوا من دونه آلهة لا يخـلقون شيئاً وهم يُخلقون، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾ الفرقان/٢ ـ ٣.

والآيات كثيرة في هذا الخصوص، ولا يقف الإنسان أمامها عاجزاً فقط، وإنَّما يصاب بالرهبة والخوف والجمود والحيرة لولا ثقته بالله وإيمانه به.

وقد يقول قائل: إنَّ هذه الرهبة كانت في القديم، فأثارت نفس الإنسان البدائي، فاندفع إلى التديّن ليأمن من خوف الطبيعة والكون، واليوم لا نحس بذلك، ولا نلمسه في النفس الإنسانية، وبالتالي فلا حاجة للدين اليوم!؟.

والجواب على ذلك: أنَّ هذا الإحساس بالرهبة كان ولا يزال وسيبقى، لأنَّه نتيجة حتمية للعجز الذي يتركّب منه الإنسان بفطرته وملكاته وإمكانيته، ولكن هذه الرهبة تغيّرت بواعثها، ففي القديم خاف الإنسان من خسوف القمر وكسوف الشمس، وأصابته الرهبة من الرياح والأعاصير والعواصف، ووقف يرتجف من بعض الحيوانات المفترسة والوحوش الكاسرة، وخشي من القحط والجدب وقلّة المطر وجفاف الأنهار...

أمّا بواعث الرهبة اليوم فلم تقتصر على ما سبق، وإنما تتحقق في نفوس العلماء الذين وصلوا الليل بالنهار، كل في اختصاصه، ثم وصلوا إلى الطريق المسدود، ووقفت الوسائل، وعجز العلم أمام اللغز المحير، وأدرك كل عالم أن وراء ذلك قوّة كاملة، وإرادة منظّمة، وعقلاً واعياً، وعظمة مطلقة، مثل تفجير الذرّة، ومرض السرطان وبقية الأمراض

المستعصية، ومعرفة تركيب العين، والسر في انسجام أعضاء الجسم، ولفظ الأعضاء الأجنبية عند نقل الكلية أو القلب... والصبغيات في تكوين الجنين، والخلايا في المخ والدماغ، وعصب العين.

ونعود لنسأل هل استطاعت الإنسانية والعلم أن يضعا حداً للزلازل والأعاصير التي تتحرك في جنوب شرق آسيا مثلاً؟ وتزيل مدينة صناعية كاملة من وجه الأرض في الصين، ويذهب ضحيتها الملايين في ثوان معدودة؟ وهل استغنى البشر اليوم عن الأنهار الجارية والأمطار؟ وهل يغيب عن ذهن العاقل أخطار الجفاف وقلّة الأمطار التي كانت تهدد أوربا بالأمس وآسيا وأفريقيا اليوم، وتنذرها بأفدح العواقب؟.

وإذا استطاع العلم أن يكشف نظام أحد المخلوقات ويعرف كيفية عمله ويدرك سر تكوينه فإنَّ هذا لا يغيِّر من الحقيقة شيئاً، ولا يفقد الفكرة قيمتها، لأنَّ هذا الكائن المخلوق يسير على نسق لا يستطيع العلم تغييره ولا تبديله، مثل تكوين الأمطار وهطولها، مع العجز عن تغيير نظامها، وتبديل الأمطار الشتوية إلى صيفية، والموسمية إلى فصلية، ونقل الأمطار والطوفان من آسيا لتخفيف الجفاف في أوربا أو بالعكس، كما اكتشف العلم تركيب الهواء أو الماء ولكن هل غيَّر من تركيبه؟ وهل أوجد شيئاً من العدم؟ وبذل البشر ملايين الملايين للوصول إلى القمر والمريخ، ولكن هل غيّروا من نظامهما؟ وهل عدلوا من سيرهما ولو مثقال ذرّة؟؟.

وإذا كان بعض العابثين لا يشعرون بهذه الرهبة، لأنَّهم يقنعون أنفسهم بما قدَّمه العلم من تفسير لبعض الظواهر التي كانت تخيف الناس في السابق، مثل تفسير ظاهرة الخسوف أو الكسوف أو نزول المطر أو حدوث البرق والرعد أو دوران الشمس والقمر، ويقفون عند هذه التفسيرات الظاهرية ثم يضعون القفل على العقل ، ويسدّون الطريق أمامه في متابعة الحكمة والغاية والهدف والسر في هذه الظواهر، والدقة في حدوثها والمحرك لها، فإنَّ هؤلاء أشبه بالطفل الذي يقترب من النار ولا يرهب حرّها، ويرمي بنفسه على السيارة المسرعة ولا يدرك خطرها، ويعبث بسلك الكهرباء ولا يعقل سعيرها، ويلهو بكتب والده أو أدواته الطبية والهندسية وآلاته الحسّاسة، ولا يعرف قيمتها، أما العالم بكل ذلك فهو المقدّر لكل شيء قدره، وهو الذي يحسّ بالرهبة والخوف أمام عظمة الله تعالى في خلقه وكونه، وصدق الله العظيم ﴿إنَّما يخشى اللهَ من عباده: العلماءُ﴾ فاطر/٢٨ .

٤ ـ ومن الدوافع الفطرية للتديّن الموت الذي يردع الأحياء ويهزّهم إلى الأعماق[1]، وينبه فيهم القوى المعطّلة، والأجهزة المتجمّدة، والإحساس المخدّر، ويزيل من أمامهم الحجب، ويكشف لهم الطريق، ويذهب الغبش عن العين، فيصحو الإنسان لنفسه، ويتفكر في حياته، ويبحث عن

---

(١) دراسات في النفس الإنسانية: ٢٢١ .

الهدف من الحياة، ويستطلع ما بعد الموت، ويدرك تماماً قيمة الحياة الآخرة، وتفاهة الدنيا، وأنّها متاع قليل، وأنَّ الكمال الحقيقي الذي يتّفق مع تكريم الإنسان وتفضيله على سائر المخلوقات أن تكون نفسه وروحه باقية بعد الموت، وأنَّ لها حياة أخرى بعد هـذه الحياة يلتقي فيهـا الأحبّة والخلان، وفيها يحاسب كل إنسـان على عمله، لتتحقق العدالة المطلقة، فيلقى كل إنسان جزاء عمله، إنْ خيراً فخير، وإن شراً فشر، يقول الإمام علي كرّم الله وجهه: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا»[1] ونقش عمر رضي الله عنه على خاتمه: «كفى بالموت واعظاً لك يا عمر».

ونلمس هذه الأحاسيس يومياً في الحياة من الملحدين والفاسقين والغافلين والمقصّرين والعابثين، فـإذا فاجـأهم الموت بعزيز أو بقريب أو بحبيب نطقوا بالحق، وصحوا من النوم أو الغفلة، وصرّحوا بالإيمان... ولبّوا نداء الفطرة، وبحثوا عن التديّن، وأسرعوا إلى الطاعة والعبادة، وأنابوا إلى بارئهم، ومنهم من يستمر، ومنهم من ينكث على عقبيه.

٥ ـ التـأمّـل في نـظام الكـون وأجـزائـه والتفكـرّ في المخلوقات، بدءاً من الانسان وتكوينه وأعضائه وأجهزته، وانتهاءً بالنجوم والمجرّات وطبقات الأرض... وكلّما تقدّم العلم وقف العقلاء مبهورين ومبهوتين من عظمة هذا الكون

---

(١) كشف الخفا: ٢/٤٣٢.

ونظامه الدقيق، ليقفوا بكل خشوع وإجلال وتذلّل أمام القدرة الخالقة المكونة، وهذا انتقال من المخلوق إلى الخالق، ومن الطبيعة إلى مكوّنها وبارئها، ومن المسبَّب إلى المسبِّب، ومن المصنوع إلى الصانع، مما يقتضيه العقل ويسوق إليه الفكر في أدقّ الأمور وأجلّها، وأحقر الأشياء وأعظمها، وهو ما نطق به ذلك الأعرابي بفطرته السليمة فقال: البعرة تدلّ على البعير، وأثر الأقدام يدل على السير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على العليم الخبير؟.

والقرآن الكريم عرض جولات كثيرة جداً مع هذا الباعث الفطري للتديّن، ليحثّ العقل على التأمّل بالكون والتدبر في المخلوقات والبحث عن نظامها العجيب، ليغرس في نفسه الإيمان والعقيدة، من ذلك:

قوله تعالى: ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون، وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ الذاريات / ٢٠ ـ ٢٢.

وقوله تعالى: ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت، فذكر إنّما أنت مذكر ﴾ الغاشية/١٧ ـ ٢١.

وقال تعالى: ﴿ الذي خلق سبع سموات طباقاً، ما ترى

في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ الملك/٣ ـ ٤.

وقوله تعالى: ﴿ خلق السموات والأرض بالحق، يكوّر الليل على النهار، ويكوّر النهار على الليل، وسخّر الشمس والقمر، كل يجري لأجل مسمّى، خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق، في ظلمات ثلاث، ذلكم الله ربّكم له الملك، لا إله إلّا هو فأنى تصرفون ﴾ الزمر/٥ ـ ٦.

وقوله تعالى: ﴿ الذي له ملك السموات والأرض، ولم يتّخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، وخلق كل شيء فقدّره تقديراً ﴾ الفرقان/٢.

وقوله تعالى: ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون، وجعلنا فيها جنّات من نخيل وأعناب وفجّرنا فيها من العيون، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم، أفلا يشكرون؟ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون، وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا

الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون ﴾ يس/٣٢ - ٤٠.

ونستطيع القول إنَّه لا توجد سورة في القرآن الكريم، - وخاصة السور المكّية - إلّا وفيها إشارة أو تصريح أو عرض كامل للنظر في الكون والتأمّل في نظامه وإبداعه، لتحريك السمع والبصر والحواس والعقل للتفكير في خلق الله تعالى، ثم الوصول بالاعتراف والإقرار بـالألوهية والربوبية.

هذه البواعث الخمسة: (التطلّع إلى الغيب، والعجز، والإحساس بالرهبة، والخوف والموت، والتأمّل في نـظام الكون) هي التي يستدلّ بها العلماء على كون التديّن فطرة في النفس، وقد عرضناها بأسلوبهم، ثم بيّنا ما يؤيدهـا ويدعمها من القرآن الكريم، وأنَّه حرص على تحريك الفطرة البشرية والغرائز الإنسانية لإثبات العقيدة وتنمية الإيمان في النفوس.

الأدلّة الشرعية على الغريزة الدينية:

ويمكننا أن نستدل على غريزة التديّن في الإنسان، وأنها مفطورة في نفسه وتكوينه بالدليل النقلي الصريح المباشر من كتاب الله تعالى، في الآيات التي تحدّثت عن خلق الإنسان وفطرته وجبلته، وما رافق ذلك من وجود الدين في النفس البشرية.

١ ـ قال الله تـعالى : ﴿ وإذ قال ربّك للمـلائكة: إني

جاعل في الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها؛ ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون، وعلم آدم الأسماء كلّها ثم عرضهم على الملائكة فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا: سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا إنّك أنت العليم الحكيم... ﴾ الآيات، ثم يقول تعالى: ﴿ قلنا: اهبطوا منها جميعاً، فإمّا يأتينكم مني هدى، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ البقرة/ ٣٠ ـ ٣٢، ٣٨.

٢ ـ قال الله تعالى: ﴿ قال: اهبطا منها جميعاً، بعضكم لبعض عدو، فإمّا يأتينكم مني هدى فمن اتّبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فإنَّ له معشية ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ طه/١٢٣ ـ ١٢٤.

٣ ـ قال الله تعالى: ﴿ إذ قال ربّك للملا ئكة: إنِّي خالق بشراً من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ سورة ص/ ٧١ ـ ٧٢.

فالآية الأولى والثانية تصرحان بأنَّ الإنسان خليفة الله في أرضه، وأنَّ الهداية والديانة والإيمان رافقه منذ هبوطه إلى الأرض، والآية الثالثة تصرّح بطبيعة الإنسان وأصل خلقه وجبلته، وأنّه من طين، ممزوج بروح الله تعالى، وأنَّ الجسد لا ينفصل عن الروح، وأنَّ كل محاولة للفصل أو بذر الشقاق بينهما شذوذ وانحراف في السلوك، وعاهة في

التكوين، كما أنَّ كل عنصر له متطلبات، وخلقت له ميول للمحافظة عليه، فالطعام والشراب والجنس للمحافظة على الجسد، والتديّن للمحافظة على الروح.

٤ ـ قال الله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربِّكم؟ قالوا: بلى، شهدنا﴾ الأعراف/١٧٢.

فهذه الآية صريحة في وجود التديّن في النفس الإنسانية قبل وجودها وظهورها على ظهر البسيطة[١].

٥ ـ قال الله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرةَ الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم﴾ الروم/٣٠.

فالنفس أو الفطرة خلقها الله تعالى، وأودع فيها هذا الاتجاه إلى الخالق، وأنَّ الإنسان مهما ابتعد عن منهج الله، وجحد وجوده، وكفر بالدين، فإنَّه لن يستطيع أن يغيّر فطرته: «لا تبديل لخلق الله» بدليل أنَّه لا يستطيع أن يحجب هذه الفطرة عمّا يجيش فيها عند الأزمات والأوقات الحرجة،

(١) وغير ذلك من الآيات كقوله تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾ البلد/١٠، وقوله تعالى: ﴿إنّا هديناه السبيل، إمّا شاكراً وإمّا كفوراً﴾ الإنسان/٣، وقوله تعالى: ﴿ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكّاها، وقد خاب من دسّاها﴾ الشمس / ٧ ـ ١٠، انظر دراسات في النفس الإنسانية: ٢١٥.

وأمام البواعث السابقة للتديّن، وبدليل ما يجده الإنسان من الندم على الأفعال الذميمة، ومن وخز الضمير ـ إن بقي عنده ضمير ولم تفسده المفاتن والشياطين ـ وهذا ما قصده رسول الله ﷺ في الحديث الشريف: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه»[1].

فالإنسان لا غنى له عن التديّن، لأنَّه جزء من ذاته ونفسه وفطرته، ولذا يجيب أحد الفلاسفة الفرنسيين على سؤال: لماذا أنا متديِّن؟ فيقول: لأنني لم أحرّك شفتي بهذا السؤال مرّة إلّا وأراني مسوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب: وهو: أنا متديّن لأنني لا أستطيع أن أكون خلاف ذلك، لأنَّ التدين لازم معنوي من لوازم ذاتي[2].

ويقول الشيخ محمد عبده عن الشعور الديني:

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبعث في جميع الأنفس عالمها وجاهلها... قديمها وحديثها، لا يمكن أن يعدّ ضلّة عقلية أو نزعة وهمية، وإنَّما هو من الإلهامات التي اختصّ بها هذا النوع... ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة في الجلاء...، شعور يهيج بالأرواح التي تحسّ هذا البقاء الأبدي، وما عسى أن تكون عليه متى وصلت إليه...[3].

(١) رواه أبو يعلى في مسنده، والطبراني في الكبير عن الأسود بن سريع.
(٢) القرآن والطبائع النفسية ٢١، ٤٤.
(٣) رسالة التوحيد، له: ٦٩ ـ ٧١.



الفصل الثالث

وظيفة الدّين في حَياةِ الفرد

إنَّ نزعة التديّن أو فطرة التديّن السابقة تركت آثاراً واضحة جلية في حياة الإنسان، فصار متعطشاً إلى الدين الصحيح الذي يروي ظمأه، ويشفي غليله، وبدأ يتطلّع إلى السماء لترحمه بالدين القيم، والشريعة الخالصة، وهذا ما كان يفعله كثير من العقلاء والحكماء في العالم عامة، وفي الجزيرة العربية خاصة، وهم الذين سُموا بالحنفاء، وجاء الإسلام ليلبّي حاجات الفرد العقلية والنفسية والروحية والجسمية، وحقّق نتائج سامية في هذه الميادين الأربعة، وهي:

أولاً ـ الناحية العقلية:

رعى الإسلام العقل الإنساني رعاية كاملة، وبوّأه المكان اللائق به، فلم يهدره ويحطّ من قمته، ولم يسخر منه

بالتأليه، والتقديس، ولم يحمله فوق طاقته، وتظهر هذه الرعاية بما يلي:

١ ـ تنمية العقل: إن العقل يتطلّع ـ بمقتضى الفطرة الإنسانية ـ إلى معرفة كل ما يحيط به، ثم يستمر بالتشوّق الغريزي إلى معرفة ما وراء الغيب، وما قبل الوجود، وما بعد الحياة والفناء، ويحاول التعرّف على الأسباب والمسبّبات، فتسعفه الحواس ببعض الأجوبة، ويأتي الدين ليلبي هذا التطلع، ويشبع هذه الرغبة، ويقدم له التفسير الصحيح والجواب الواقعي لكل ذلك، دون أن يمنعه من البحث والكشف عما يطوله من مكنونات الكون الموجود المحسوس، وبعبارة أخرى: فإنَّ الدين يمنح العقل المعرفة الصحيحة والأجوبة الكاملة عمّا وراء الغيب، ويكشف له الطريق ويضع له المنارات، ويأخذ بيديه ليسبر أحوال الكون التي تقع تحت حواسه، ويطوله البحث والتجارب.

ومن هنا تسمو القوّة النظرية العقلية في الإنسان، ويشبع الدين نهمة العقل، فإن حرمناه من ذلك فلا تتحقق مطامحه العليا، وفي ذات الوقت لا نستطيع أن نمنع العقل من هذا التطلع، وإن وضعنا الحاجز أمامه فقد حجرنا على العقل، وكبتنا مشاعره وأحاسيسه، وعطّلنا عمله ونشاطه، وأبطلنا جانباً منه.

فالدين غذاء ضروري لتنمية العقل، ويأتي الدين السماوي الصحيح ليرشد العقل إلى الهداية والخير في العقيدة،

ويوجهه إلى التفكير السديد في الكون، وإلى الاعتبار بما فيه من آيات باهرة، ويقدم له التفسير السليم عن الم يبات وما وراء الطبيعة، فيبعده عن كل ضلال وانحراف، ويوجهه إلى الطريق الصواب، والآيات القرآنية التي تبين الهدف من إنزال الكتب وإرسال الرسل كثيرة في هذا الخصوص، منها قوله تعالى: ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، إلى صراط العزيز الحميد ﴾ إبراهيم/٢، ومنها قوله تعالى: ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت، يخرجونهم من النور إلى الظلمات، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ البقرة/٢٥٧، وقوله تعالى: ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتّبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ المائدة /١٥ ـ ١٦، وقوله تعالى: ﴿إنَّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ الإسراء/ ٩.

والعلم لا يبحث عن ذلك كله، لأنَّ أساسه التجربة ـ كما سنرى ـ وهذه الأمور لا تخضع للتجربة، ولذلك يأتي الدين ليسدّ الفراغ، وينمّي العقل، ويعطيه الغذاء الذي يطلبه، بل الغذاء الضروري الذي يحتاج إليه.

يقول الدكتور يوسف القرضاوي[١]: إنَّ الإيمان بالله ليس

(١) العبادة في الإسلام: ١٨.

غريزة فطرية فحسب، بل هو ضرورة عقلية كذلك، وبدون هذا الإيمان سيظلّ هذا السؤال الذي أثاره القرآن قلقاً حائراً بغير جواب: ﴿ أم خلقوا من غير شيء؟ أم هم الخالقون؟ أم خلقوا السموات والأرض؟ ﴾ الطور / ٣٥ ـ ٣٦.

وليس لهذا السؤال إلاّ جواب واحد، لا يملك الإنسان ـ إذا ترك ونفسه ـ إلاّ أن يجيب به، كما فعل المشركون أنفسهم: ﴿ ولئن سألتهم: من خلق السموات والأرض؟ ليقولن: خلقهن العزيز العليم ﴾ الزخرف/٩.

٢ ـ تكريم العقل: إنَّ التفسير الديني للإنسان والكون والحياة وما وراء الحياة فيه تكريم للعقل الإنساني، لإطلاق العنان له في العمل، وإبعاده عن السخافات والأوهام والخرافات والأساطير التي تتسرّب إليه في تفسير المغيبات، كمن يظن أنَّ الأرض على قرن ثور، ومن ينسب تنظيم الكون إلى الطبيعة الصمّاء العاجزة عن إيجاد نفسها[١].

ويظهر هذا التكريم للعقل الإنساني في تقديس القوة الخالقة المبدعة، وحصر العبودية والخضوع لها، وإبعاد الناس عن عبادة الأصنام والأحجار والشجر والبقر والطواغيت من البشر...[٢]، فالإسلام يزود العقل بالعقيدة الصحيحة،

---

(١) شبهات حول الإسلام ١٥.

(٢) من طريف ما يروى في هذا الخصوص أن عربياً في الجزيرة العربية حمل الصنم الذي يعبده معه في السفر. واضطر أن يغيب عنه قليلاً، فلمّا رجع =

والتصوّر الرشيد عن الخالق والكون والإنسان والحياة، وأن ما في الكون مسخر للإنسان ومخلوق له، فينزّه العقل عن الخضوع لهذه الكائنات المخلوقة له، والمعدة لخدمته وتسخيره.

ويظهر هذا التكريم للإنسان، لما يكسبه من العزّة التي تنتج من عزّته بالله والإيمان به، يقول تعالى: ﴿ ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ المنافقون/٨، وقال رسول الله ﷺ في دعائه: «اللهم إني أعوذ من الخوف إلاّ منك، ومن الذل إلا لك، ومن الفقر إلاّ إليك» وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله المشهور: «نحن قوم أعزّنا الله بالإسلام، ومهما ابتغينا العزّة في غيره أذلّنا الله»، وقد ارتدى المسلمون هذه العزّة، وشعروا بآثارها، وتفيأوا تحت ظلالها، وانتصروا بها، وحافظوا عليها، ولما عرضٍ كِسرى على جيش المسلمين الطعام والمال والحماية، وذكر قادة المسلمين بتاريخ القبائل العربية وما كانوا عليه من الجوع والفقر والذل... واللجوء إلى الفرس، قال له رِبعي بن عامر بكل عزّة بالله، وثقة بالنفس، وكرامة وإباء: جئنا لنخرج الناس عن عبادة العباد

= وجد الثعلب قد بال على رأس الصنم، فتنبّه عقله وصحا وعيه، وفكّر في عمله وعبادته لصنم يبول عليه الحيوان، فكفر به وتخلّى عن عبادته، وأنشد مستهزئاً قائلاً:

أَرَبٌّ يبول الثعلبان برأسه
ألا تبَّ من بالت عليه الثعالب

إلى عبادة الله، ومن جَور الحكام إلى عدل الإسلام.

٣ ـ دعوة العقل إلى التفكير والبحث والتأمّل في الكون، وسبر دقائقه، وكشف أسراره، والاستفادة من خيراته، والتمتع بطيباته التي خلقها الله تعالى وسخّرها للإنسان، قال تعالى: ﴿ألم ترَ أنَّ الله سخّر لكم ما في الأرض﴾ الحج/٦٥، وقال تعالى: ﴿ألم تروا أنَّ الله سخّر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ لقمان/٢٠، وقال تعالى: ﴿وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون﴾ الجاثية/١٣، وقد تعددت الآيات صراحة وإشارة في مخاطبة العقل والفكر للنظر والبحث في الكون، وجعل التفكير فريضة إسلامية.

قال تعالى: ﴿إنَّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ البقرة/ ١٦٤.

وقال تعالى: ﴿إنَّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السموات والأرض، ربّنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك فقنا عذاب النار﴾ آل عمران/ ١٩٠ ـ ١٩١.

وقال تعالى: ﴿ إنَّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون ﴾ الرعد/٣، ثم قال تعالى: ﴿ إنَّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ الرعد/٤.

وقال تعالى: ﴿ وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار، أفلا تعقلون ﴾ المؤمنون/٨٠.

وجعل تعالى العقل أساساً للنجاة من النار وللفوز بالجنة، قال تعالى: ﴿ وللّذين كفروا بربِّهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴾... ﴿ وقالوا: لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير ﴾ الملك /٦، ٩.

وقال تعالى: ﴿ انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ يونس/١٠١.

والآيات التي تصرّح بوجوب النظر والتفكر، وتدعو إلى إعمال العقل والفكر، وتنبه ذوي الألباب كثيرة جداً، ولذلك تُختم كثير من الآيات بقوله تعالى: ﴿ إنَّ في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴾ الزمر/٢١، وقد تكرّرت هذه اللفظة «الألباب» ست عشرة مرّة في القرآن الكريم، وتكرّرت لفظة «العقل» أو ما يشتق منها تسعاً وأربعين مرّة، وتكرّرت لفظة «فكر» وما يشتق منها ثماني عشرة مرّة مما يدل على احترام العقل، وحثّه على التفكير.

يقول الأستاذ المرحوم عباس محمود العقّاد:

«وفريضة التفكير في القرآن تشمل العقل الإنساني بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها، فهو يخاطب العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم والعقل الرشيد، ولا يذكر العقل عرضاً مقتضباً بل يذكره مقصوداً مفصَّلاً على نحو لا نظير له في كتاب من كتب الأديان»[١].

٤ ـ الدعوة إلى العلم: ونتيجة للبحث والتفكير ووجوب النظر ينتج العلم الذي دعا إليه الإسلام بأوسع أبوابه نظرياً وعملياً، والآيات كثيرة في فضل العلم ومنزلة العلماء، والحثّ على العلم والأخذ بأسبابه ووسائل، منها:

قوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق﴾ فصلت/٥٣.

وقال تعالى مبيناً مكانة العلماء وأثر العلم في الإيمان: ﴿والراسخون في العلم يقولون: آمنّا به كل من عند ربّنا، وما يتذكر إلا أولوا الألباب﴾ آل عمران/٧.

وقال تعالى: ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنّه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم، وإنَّ الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ الحج/٥٤.

وقال تعالى: ﴿إنَّما يخشى الله من عباده: العلماءُ﴾ فاطر/٢٨.

---

(١) التفكير فريضة إسلامية، له: ٨.

وقال تعالى: ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيّب ولو أعجبك كثرة الخبيث، فاتّقوا الله يا أولي الألباب لعلّكم تفلحون ﴾ المائدة/١٠٠.

وقال تعالى: ﴿الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولو الألباب﴾ الزمر/١٨.

وقال تعالى: ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنّما يتذكّر أولوا الألباب ﴾ الزمر/٩.

وقال تعالى: ﴿ يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات، والله بما تعملون خبير ﴾ المجادلة/١١.

وفي مجال الحثّ على العلمِ والبحث والنظر في الكون للوصول إلى الهداية والخير والتمتّع فيما خلق الله تعالى، قال عزّ وجلّ: ﴿ أوَ لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾ الأعراف/١٨٥.

وقال تعالى: ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ يونس/١٠١.

وقال تعالى: ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها، ومالها من فروج، والأرض مددناها، وألقينا فيها رواسي، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ سورة ق/٦ ـ ٨.

وقال تعالى: ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت﴾ الغاشية/١٧ ـ ٢٠.

وقال تعالى: ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ الذاريات/ ٢٠ ـ ٢١.

وقال تعالى: ﴿ أوَ لم يروا أنّا نسوق الماء إلى الأرض الجرز، فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ السجدة/٢٧.

وإنَّ العلم فريضة على كل مسلم، ولا ينحصر ذلك في العلوم الشرعية، بل يتناول جميع العلوم بمختلف أشكالها، وكل علم فرض كفاية على المسلمين، والتاريخ الإسلامي خير شاهد على فهم هذه الآيات وتطبيقها في حمل مشعل العلم والحضارة طوال قرون عديدة كان المسلمون فيها يتمسكون بالإسلام، ويطبقون تعاليمه.

وقد وردت أحاديث كثيرة ومتنوعة ومتعدّدة في فضل العلم والعلماء، منها: قال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يصنع؛ وإنَّ العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب،

وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنَّما ورثوا العلمُ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[1].

وبيّن رسول الله ﷺ فضل العلم ومكانته وفوائده وأهميته وآثاره فقال: تعلّموا العلم، فإنّ تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنَّه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدِّث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة قائمة تقتص آثارهم ويقتدى بفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، لأنَّ العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، التفكّر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء[2].

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي عن أبي الدرداء.

(٢) رواه ابن عبد البر النمري في كتاب العلم، عن معاذ بن جبل.

وقال عليه الصلاة والسلام: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1].

وقال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلّا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويعلّمها»[2].

فالإسلام أعطى حرية التفكير، وفتح جميع المجالات العلمية التي يستطيع العقل البشري أن يصل إليها، ولكنه لم يترك العقل يبحث في الغيبيات وأمور الآخرة، لأنَّ البحث العقلي فيهما عبث ومحال، ولن يصل إلى نتيجة إلّا بالتخيّلات التي لا تنفع ولا تجدي شيئاً، بخلاف النظر في الكون وما فيه فإنه يؤدي إلى فائدتين: الأولى العلم والمعرفة والاستفادة الدنيوية، والثانية: معرفة الخالق وعظمته، وإقامة العقيدة والإيمان على أسس راسخة، وأدلّة واقعية، وبحث تحليلي . . .

٥ ـ وأخيراً تظهر رعاية الإسلام للعقل البشري بأنَّه ربط التكليف بالأحكام الشرعية بالعقل، وجعل البلوغ علامة وأمارة له، وأناط المسؤولية بالعقل فقط، فلا يسأل الصغير والمجنون والمعتوه لعدم العقل الكامل عندهم، ولا يخاطب

---

(١) هذا جزء من حديث رواه ابن ماجه عن أنس.

(٢) رواه البخاري ومسلم، وانظر بقية أحاديث العلم وفضله وآدابه في الترغيب: ١/٩٢ وما بعدها.

الإنسان إلّا بعد ظهور العقل ونضجه، وعلّق الأحكام بذلك، وأراد الإسلام أن يحافظ الإنسان على نعمة العقل، فأباح له كل ما ينمي العقل ويشحذه ويصقله، وحرم عليه كل ما يؤذي العقل أو ينقصه أو يؤثر عليه أو يذهبه أو يعطّله عن العمل كالمسكرات، وجعل حفظ العقل من مقاصد الشريعة الخمسة، وبوّأه مكانة الضروريات التي لا يمكن أن تسير الحياة بدونها.

ونختم هذه الفكرة بما بدأ به العقاد كتابه، فقال: «من مزايا القرآن الكثيرة مزية واضحة يقلّ فيها الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين لأنّها تثبت من تلاوة الآيات ثبوتاً تؤيده أرقام الحساب ودلالات اللفظ اليسير، قبل الرجوع في تأييدها إلى المناقشات والمذاهب التي قد تختلف فيها الآراء، وتلك المزية هي التنويه بالعقل والتعويل عليه في أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف»، وبين العقاد رحمه الله موقف الأديان الكبرى من العقل، ثم قال: «ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلّا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه»[1].

ثانياً ـ الناحية النفسية:

اهتم الإسلام بالنفس الإنسانية، فاتجه إليها بالرعاية والتربية والتوجيه، وتظهر هذه الرعاية بما يلي:

---

(١) التفكير فريضة إسلامية، له: ٥

١ ـ **الكمال النفسي**: إنَّ التـديّن عنصر ضروري لتكميل قوّة الوجدان، فتسمو العواطف النبيلة لتجد ضالتها الكاملة والسامية في الدين كلياً، إن لم تجدها في الأشياء أو في الناس، مثل الحب والشوق والتواضع والحياء والأمل، وهذه العواطف إن وجدتها النفس الإنسانية جزئياً في الأشياء وعند الناس ـ فإنَّها ترى صورتها المثـالية في الـدين، والآيات القرآنية كثيرة في ذلك، وهي تمثّل النفس الواقعية التي يسمو بها الإيمان إلى الكمال.

منها قوله تعالى: ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء، والكـاظمين الغيظ والعـافين عن النـاس، والله يحب المحسنين ﴾ آل عمران/ ١٣٤.

ومنها قوله تعالى: ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنَّـا لله وإنّا إليه راجعون، أولئـك عليهم صلوات من ربهم ورحمـة، وأولئـك هم المهتدون ﴾ البقرة/ ١٥٥ ـ ١٥٧.

وفي نطاق الأسرة يبيّن الله تعالى حقوق الزوج وحقوق الزوجة، ثم يدعو كلاً منهما للعفو والصفح والإحسان عند الطلاق، قال تعالى: ﴿ وإن طلقتموهنَّ من قبل أن تمسوهنَّ وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلاّ أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح، وأن تعفوا أقرب للتقوى، ولا

تنسوا الفضل بينكم، إنَّ الله بما تعملون بصير ﴾ البقرة/ ٢٣٧.

وفي مجال الدماء والجنايات والحروب والقتل والتمثيل بالقتلى والقصاص بالمثل يبيّن القرآن الكريم الحكم الشرعي بالمعاقبة بالمثل، ثم يدعو إلى الصبر والتريث في القتل، ثم يسمو بالنفس لتتجمل بالصبر، وتحتسب الأمر عند الله تعالى، ويؤكد عليها ذلك بطلب عدم الحزن ورفع الضيق النفسي،، ليصل بها إلى المرتبة السامية، وهي أعلى مرتبة في الإسلام والحياة أجمع، وهي التقوى والإحسان قال تعالى: ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين، واصبر وما صبرك إلّا بالله، ولا تحزن عليهم، ولا تكُ في ضَيق مما يمكرون، إنَّ الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون ﴾ النحل/١٢٦ ـ ١٢٨، وقد جاءت هذه الآيات الكريمة بعد الآية المحكمة الجامعة الشاملة لأدب الإسلام وأسلوب الدعوة وطريق الرشاد: ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ النحل/ ١٢٥.

ومما يكمل النفس دعوةُ الإسلام إلى الأخلاق الفاضلة، والآداب الحميدة التي تطهرها من النقائص والرذائل، وتخفف من الانفعالات السيئة والعواطف المنحرفة، والميول الجامحة.

٢ ـ تلبية الدوافع النفسية: فالدين يعبّر عن حاجات النفس في مختلف ملكاتها ومظاهرها، ويعودها على مقاومة النزعات الطائشة والأهواء الفاسدة، ويلبي الدوافع الفطرية من غير إفراط ولا تفريط.

«ومن هنا كان حرص الإسلام الشديد على تحرير البشر من شهواتهم، لا بفرض الرهبنة عليهم، ولا بتحريم الاستمتاع بطيبات الحياة، وإنَّما بتهذيب استجابتهم إليها، وإتاحة القسط المعقول من المتاع الذي يرضي الضرورة ويطلق الطاقة الحيوية تعمل لإعلاء كلمة الله في الأرض، وكان الإسلام في ذلك يهدف إلى فائدة شخصية للفرد بتحقيق قسط من المتعة وراحة البال، وفائدة أخرى للمجتمع كله بتوجيه طاقته إلى الخير والتقدّم والارتقاء، حسب نظريته الكبرى في التوفيق بين الفرد والمجتمع في نظام»[١].

ويكمل الدين العوامل النفسية التي تختلج في ضمير الإنسان، فالدين يكمل قوّة الإرادة، لأنَّ الدين يمد الإنسان بأعظم البواعث والدوافع، ويسلحه بأنجع الوسائل لمقاومة التردد أو اليأس أو القنوط، ويحد من ثورة النفس في الفرح والغضب، قال تعالى يصف المؤمنين: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض، ولا في أنفسكم إلاّ في كتاب من قبل أن نبرأها، إنَّ ذلك على الله يسير، لكيلا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا

---

(١) شبهات حول الإسلام: ١٤.

بما آتاكم، إنَّ الله لا يحب كل مختار فخور﴾ الحديد/ ٢٢ - ٢٣، وقال تعالى: ﴿إذ قال له قومه: لا تفرح إنَّ الله لا يحب الفرحين﴾ القصص/٧٦، وعندما طلب أحد الصحابة من رسول الله ﷺ النصح والوعظ والإرشاد بإيجاز إلى أفضل السلوك والفضائل قال له «لا تغضب»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «ليس الشديد بالصرعة، إنَّما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[2]، ويقول الله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنَّ الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ الزمر/٥٣، وقال تعالى: ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلّا الضالون﴾ الحجر /٥٦.

ومن هنا شرعت بعض العبادات كالصيام والحج لتقوية الإرادة والتعويد على الصبر وتحمّل المشاق.

٣ - الدين دواء لمعالجة الأمراض النفسية في الإنسان كالهمّ والحزن والقلق واليأس والخوف والقنوط والتردد والحيرة.. كل ذلك عن طريق الإيمان بالله تعالى، وأنَّه الملجأ للإنسان في كل الأحوال، والموئل للمرء في الخير والشر والسرّاء والضرّاء وكل تصرفات الكون، فإن أصاب المؤمن خير شكر، وإن أصابه شر صبر، وإن انتابه الخوف

---

(١) رواه البخاري والترمذي وأحمد عن أبي هريرة، وروى الطبراني وابن أبي الدنيا عن أبي الدرداء، أنَّ رسول الله ﷺ قال: لا تغضب ولك الجنّة، وفي رواية: لا تغضب فإنَّ الغضب مفسدة.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة.

أمن بجانب الله، وإن وسوس له الشيطان باليأس والقنوط.. استعان بالله واستعاذ به... قال الله تعالى: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنَّه سميع عليم، إنَّ الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون﴾ الأعراف/ ٢٠٠ ـ ٢٠١.

وكان رسول الله ﷺ إذا انتابه أمر فزع إلى الصلاة، وجعلت قرة عينه في الصلاة، وسن لمن اعتراه غضب مفاجىء أن يتوضأ ليطرد وسوسة الشيطان، ويطفىء ثورة الغضب، وشرع الصوم للشباب الذي تقصر أيديهم عن الزواج... وغير ذلك من النصوص الشرعية والتربية القرآنية في هذه الأمور، وقد ظهرت الآثار الإيجابية على الفرد والمجتمع، كما يحس بها المؤمن في كل لحظة في حياته، ونكتفي بحديث واحد عن رسول الله ﷺ يقول فيه: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلّا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[1].

٤ ـ الدين يمنح النفس الهدوء والطمأنينة والاستقرار وقوة الإرادة، لأن المتديّن يعتقد أنَّ كل أمر من عند الله، كما جاء في الحديث السابق، فإن أصابه ضراء لم يخرج عن المألوف من الدين ورضي بذلك بعكس الغافلين أو الملحدين أو الحيارى الذين أصابهم الخواء الروحي فيصابون بالاضطراب، وينتابهم القلق والضجر في مواجهة العقبات

(١) رواه مسلم وأحمد عن صهيب.

والأحـداث، وقد يفقـدون وعيهم، أو يضيعون عقلهم أو يلجؤون إلى المخدرات أو الانتحار عند الصدمة الأولى في الحياة، لفقدان الإيمان، أمّا المؤمن فإنَّه يجابه كل ذلك بصدر رحب، ويعتقد أنَّ الله هو المتصرف بشؤون الكون، وما شاء الله كان، وأنَّ الخيرة فيما اختاره الله تعالى، وعسى أن يكره شيئاً، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً[1].

قال تعالى مصوراً حال المؤمن وحال الكافر: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصَّعد في السماء، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ الأنعام/ ١٢٥.

ويصف القرآن الكريم اضطراب وحيرة الملحد، فيقول تعالى: ﴿ أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه، وأضلّه الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله؟! ﴾ الجاثية/٢٣، وقال تعالى: ﴿ كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران ﴾ الأنعام/٧١.

ويصف القـرآن الكريم حـال المنافقين وقلقهم فيقـول تعالى: ﴿ إنَّ المنافقين يخادعون الله، وهو خادعهم، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، يُراؤون الناس، ولا يذكرون الله إلّا قليلاً، مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء، ولا إلى

(١) انظر: الدين، دراز: ٩٨، الإسلام وحاجة الإنسانية إليه: ٢٤٥، الأصول العامّة لوحدة الدين الحق: ٢٢٣، الدين والحضارة الإنسانية: ٨٠، والمجتمع الإسلامي في ظل الإسلام، المرحوم محمد أبو زهرة: ٢٥.

هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً ﴾ النساء/١٤٢ - ١٤٣، ويقول تعالى: ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأنّ به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين﴾ الحج/ ١١.

بينما يصف القرآن الكريم المؤمنين فيقول تعالى: ﴿ الذين آمنوا، وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ الرعد/٢٨، ويقول رسول الله ﷺ: «وجعلت قرّة عيني في الصلاة»[١].

ويرشد الرسول الكريم إلى صفات المؤمن، ويعلّمها ابن عباس رضي الله عنه في وصية جامعة فيقول له: «يا غلام، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضروك إلاّ بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف»، وفي رواية أخرى:

«احفظ الله تجده أمامك، تعرّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدّة، واعلم أنّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك

(١) هذا جزء من حديث رواه أحمد والنسائي والحاكم وابن سعد والبيهقي عن أنس.

لم يكن ليخطئك، واعلم أنَّ النصر مع الصبر، وأنَّ الفرج مع الكرب، وأنَّ مع العسر يسراً»[1].

إنَّ هذا الا طمئنان النفسي للمؤمن هو الذي نلمسه في إبراهيم عليه الصلاة والسلام عندما ألقي في النار، ونلمسه في ثبات موسى عليه الصلاة والسلام عندما تجمهر عليه السحرة، ونلمسه في اطمئنان رسول الله ﷺ أثناء هجرته إلى المدينة عندما طلبه الكفّار ووضعوا المكافآت لقتله، ولحق به سراقة، ورسول الله لا يلتفت ولا يخاف ولا يضطرب، يسير نحو هدفه واثق الخطا، قرير العين، ثابت الجنان، كما يتجلى ذلك الإيمان في هدوء نفسه وهو في الغار، وقد وطئت أقدام الكفر والشرك باب الغار، فيقول لأبي بكر: «ما ظنّك باثنين الله ثالثهما» وهذا الاطمئنان النفسي بالإيمان هو الذي وجده الصحابة والمؤمنون، ويجده كل مسلم، عند نزول المصائب به، فيتقبلها بهدوء وراحة.

ثالثاً: الناحية الروحية:

وتظهر رعاية الإسلام للإنسان في الناحية الروحية بما يلي:

١ ـ **الدين غذاء روحي للإنسان:** فقد رأينا أنَّ الإنسان جسم وروح، والجسم يتغذى بالطعام والشراب، بينما تتغذى الروح بالإيمان والعقيدة والاستئناس بالخالق المدبر، الحي

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم وأحمد.

القيوم، الرحمن الرحيم، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، وتلجأ الروح إلى الذات الإلهية لتنعم بالخير والأمن والطمأنينة، وتناجيها في دفع الأذى والضرر، ولهذا فرض الإسلام العبادات والشعائر الدينية والأذكار اليومية لتهذيب الروح، ودعم الصلة بالله تعالى، وربط القلب به مباشرة، وغير ذلك من أهداف العبادات المتمثلة في قوله تعالى:

﴿ إنَّما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾ الأنفال/٢ ـ ٤.

يقول الأستاذ محمد قطب: «وطريقه الإسلام في تربية الروح هي أن يعقد صلة دائمة بينها وبين الله في كل لحظة وكل عمل وكل فكرة وكل شعور»[1].

وهذه المعاني السامية التي ترتكز على الإيمان بالله والعبادة له، وتحرم الخضوع لغير الله هي التي نصّ عليها القرآن الكريم عندما دعا أهل الكتاب إلى التسليم والالتزام بها، فقال تعالى: ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبدَ إلّا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ آل عمران/٦٤.

(١) منهج التربية الإسلامية: ٤٨.

وهذا الغذاء الروحي هو الذي يحفظ النفس والروح في الطريق السوي وهو الذي يوثق الصلة مع الله بالحب والإخلاص، يقول رسول الله ﷺ: «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلاّ لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار»[1].

٢ ـ **الدين قوّة دافعة للتقدم:** لأنَّ هذا الغذَاء الروحي يحرر الإنسان من قيود الذلّ والخوف والجبن والتردد ويرتفع بالفرد إلى مصاف الكمال والعزّة والكرامة، ويخلق فيه المعاني الروحية والنفسية التي تتحدى العجز وتأنف الدون من الحياة وتأبى الخضوع لغير الله تعالى، وتبغي الكمال في كل شيء، التزاماً بما تمليه عليها العقيدة والإيمان بالقضاء والقدر، وابتغاء لمرضاة الله في تنفيذ أوامره وأحكامه، وطمعاً بما عنده يوم القيامة، وإن الدين يمدّ الفرد بطاقات روحية هائلة وعظيمة كالشجاعة والتضحية والكرم، ويتّفق العلماء قديماً وحديثاً على أنَّ الروح المعنوية للإنسان هي المحرك الأساسي والعامل الحاسم في قضايا السلم والبناء والتعمير والنجاح، كما أنَّها السلاح الحيوي الفعال في الحرب والقتال والنصر على الأعداء، وهذا شيء ملموس، ويسلم به المؤمن والكافر، ولا ينكره إلاّ أحمق أو مجنون.

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد عن أنس.

يقول الأستاذ العقّاد: وقلّ أن ترى إنساناً معطّل الضمير على شيء من القوة والعظمة إلّا أمكنك أن تتخيله أقوى من ذلك وأعظم إذا حلّت العقيدة في وجدانه محل التعطل والحيرة.

٣ ـ **الدين سلاح في الحياة**: ومن هذا الغذاء الروحي في التدين يواجه الإنسان مصاعب الحياة، ويجابه قوى الشر والبغي، ويحدد موقفه من مظاهر الطبيعة، ويقيم الصلة الوثيقة مع الله تعالى مباشرة من غير وساطة ولا كهنوت، فيقف المسلم بين يدي ربه يخاطبه مباشرة، ويستنجد به، ويستعين به، ويستهديه، فيقول له: «إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم» تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون ﴾ البقرة/١٨٦، وقوله تعالى: ﴿ ونحن أقرب إليه منكم، ولكن لا تبصرون ﴾ الواقعة/٨٥، وقوله تعالى: ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ سورة ق/١٦.

٤ ـ **الدين تهذيب للروح**، لأنَّ هذا الغذاء الروحي في التديّن يوجه النفس إلى ربّها فتخشع لجلاله، وترغب في ثوابه، وترهب من عقابه، وتخاف من بطشه، وتبتعد بالتالي عن سبل الشر والفساد.

وهذه الوظيفة الروحية للدين هي التي تقرع آذان المذنبين

المقصّرين والمفرطين في جنب الله تعالى ليعودوا إلى رشدهم، ويتوبوا إلى ربِّهم، ويقلعوا عن ظلمهم وذنوبهم، ويؤنبوا ضميرهم، فإذا صحا قلبهم رأيتهم مقبلين على الطاعة والعبادة، أو مسرعين إلى الإنفاق والصدقات والتبرعات بأيدٍ سخية، ونفوس رضية، أو يسعون لتطهير حياتهم بالذهاب إلى الحجّ وزيارة بيت الله الحرام، ليقطعوا حبال الجاهلية التي كانوا بها، ويوصلوا حبال الدين والإسلام والإيمان، وقد يؤدي ذلك بهم أحياناً إلى التفريط بالإنفاق والعبادات، طمعاً بالمغفرة، وكفّارة لما اقترفوه في سابق عهدهم، وتجديداً للعهد مع ربهم، والالتزام بحدوده، والاستئناس بجواره وشرعه.

وفي مقابل ذلك فإنّنا نرى أنّ باب التوبة مفتوح على مصراعيه، ليدخل منه التائبون ويستقبلهم بأوسع منافذه، ويفرح الله بتوبتهم، ويجدونه توّاباً غفوراً رحيماً، قال تعالى: ﴿ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإنَّ الله يتوب عليه ﴾ المائدة/٣٩، وقال تعالى: ﴿ وإنّي لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ طه/٨٢، وقال تعالى: ﴿ إلّا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفوراً رحيماً، ومن تاب وعمل صالحاً فإنّه يتوب إلى الله متاباً ﴾ الفرقان/٧٠ ـ ٧١، ويقول رسول الله ﷺ: «إنَّ الله عزّ وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى

تطلع الشمس من مغربها»[1]، ويقول رسول الله ﷺ: «لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب الله عليكم»[2]، ويقول عليه الصلاة والسلام: «كل ابن آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوابون»[3]، ويقول أيضاً: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[4].

٥ ـ الدين يقيم التوازن بين الجسم والروح والعقل التي يتكون منها الإنسان، فإن قويت عند الإنسان غرائزه وشهواته أصبح بالحيوان أشبه، وإذا برز فيه التفكير والعقلانية وصل إلى الفلسفة والسفسطة والخيال، وإذا انجرف وراء الروح وأهمل الجسم والمادة والحياة وصل إلى العزلة والرهبنة وكبت الغرائز وتجميد العقل، فلا بدّ من الدين الذي ينظّم حالات الإنسان، ويقيم التوازن في جميع نواحيه[5].

ولقد كان موقف الإسلام وسطاً في إقامة التوازن بين مطالب الروح ومطالب الجسد، وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة، ويصور هذا التوازن قوله تعالى: ﴿ وابتغ فيما آتاك

---

(١) رواه مسلم والنسائي.
(٢) رواه ابن ماجه بإسناد جيد.
(٣) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم.
(٤) رواه ابن ماجه والطبراني وابن أبي الدنيا والبيهقي، انظر الترغيب والترهيب: ٤/٨٨، ٩٠، ٩٧.
(٥) انظر منهج التربية الإسلامية: ٣١، ٤٣، دراسات في النفس الإنسانية: ٢٣٦.

الله الدار الآخرة، ولا تنسَ نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض، إنَّ الله لا يحب المفسدين ﴾ القصص/٧٧، وقولـه تعالى: ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنَّه لا يحب المسرفين ﴾ الأعراف/٣١، وقوله ﷺ: «أمّا إنّي أصوم وأفطر، وأقوم وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس مني»[١]، وأثرُ علي رضي الله عنه: «اعمل لدنياك كأنَّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنَّك تموت غداً»، ويقول رسول الله ﷺ: «ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه، حتى يصيب منهما جميعاً، فإنَّ الدنيا بلاغ إلى الآخـرة، ولا تكونوا كلاًّ على الناس»[٢].

رابعاً ـ الناحية الجسدية:

إنَّ الإسلام اهتمّ برعاية الجسم رعاية كاملة، فدعا إلى النظافة والطهارة، وندب إلى الرياضة والمبارزة، واعتبر القوّة الجسدية ميزة في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا،

---

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد عن أنس.

(٢) رواه الديلمي وابن عساكر عن أنس.

ولكن قلْ: قدَّر الله وما شاء فعـل، فإنَّ لـو تفتّح عمـل الشيطان»[1]

ونلاحظ أنَّ الحديث جمع بين القوّة الجسدية وبين القوّة النفسية والمعنوية، ثم ربط الأمرين بالإيمان بالله وبالقضاء والقدر.

وطلب الإسـلام البعد عن كـل ما فيـه هـلاك محقّق للجسم، أو خطر منتظر، وحرّم كل ما يضرّ الجسم، أو يوهنه أو يضعفه، واتّخذ جميع الوسائل لحفظ الحياة، وبذل الطاقة في صيانتها وسلامتها، وحذر من الأمراض، وشرع التداوي، وأباح الزينة والاعتدال في الطعام والشراب والإنفاق وغيرها من الطيِّبات، وأنكر الامتناع عن الطعام زهداً وتقشّفاً، ونهى عن التبتّل في العبادة، وحرّم صوم الوصال، ومنـع صوم الدهر، وحرّم القتل، واستنكر الانتحار ورهَّب من فعله وتوعّد فاعله، وجعل التكليف بقدر الاستطاعة، وفتح أبواب الرخص في العبادات والأحكام خشية العنت، وصرّح الفقهاء بقاعدة: «صحة الأبدان مقدّمة على صحة الأديان»، وأقام الإسلام منهجاً سديداً لتنظيم الغـرائز المختلفـة والميول المتبـاينة والعواطف المتعدّدة، وحرص على التوازن بينها، دون أن تطغى غريزة على أخرى، فيقع الإنسان في المهالك، وينتابه الشذوذ، أو تتحكم فيه الغـرائز والشهـوات وتصرفـه عن

(١) رواه مسلم وابن ماجه وأحمد عن أبي هريرة.

الجوانب العقلية والنفسية والروحية، ومن هنا قدّس الإسلام العمل وكرّم العاملين، وجعل أطيب الطعام ما يأكله المرء من عمل يده، دون أن يكون عالة على غيره كما اعتبر الكسب في سبيل العيال وعفّة النفس عبادة، وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إنَّ مِنَ الذنوب ذنوباً لا تكفّرها الصلاة ولا الصيام ولا الحجّ ولا العمرة، ولكن يكفّرها الهمّ في طلب المعيشة»[1].

(١) رواه ابن عساكر وأبو نعيم في الحلية.

الفصْل الرابع

وظيفة الدّين في حَيَاة المجتمَع

يتكوّن المجتمع من الأفراد، ومتى تربّى الفرد، وكمل عقله، وصفت نفسه، وتهذبت روحه، وتقوّى جسده، كان المجتمع صالحاً وقوياً ومهذّباً، ومع ذلك فقد رعى الإسلام المجتمع، وخصّه بالتوجيه والتربية والتشريع ليكون مجتمعاً فاضلاً، لأنَّ الإسلام ـ وهو الدين الخالد ـ جاء لبناء الفرد ولبناء المجتمع معاً، ولتربية الفرد وإقامة الدولة، ولرعاية الإنسان وقيادة المجتمع والإنسانية.

وتظهر آثار الدين في المجتمع بما يلي:

١ ـ **إقامة الروابط الاجتماعية الحيّة كلّها عن طريق الدين،** سواء أكانت على نطاق الأسرة أم على مستوى الوطن، أم على مستوى الأمم والدول والشعوب، وخاصّة الروابط المعنوية والأخلاقية، كالتراحم والتعاطف والتكافل والمحبّة

والأخوة والتعاون والمساواة... وغير ذلك من المبادىء الأخلاقية، والتشريعات الاجتماعية والأنظمة والأحكام والقوانين العادلة.

ويهدف الإسلام من ذلك أن يربط الفرد بالمجتمع، وأن يغرس فيه الشعور بالولاء والانتماء إليه، وأن يكون الفرد مشاركاً في شؤون المجتمع، ومسؤولاً فيه في ذات الوقت، وخشية أن يكون تأثير المجتمع سلبياً أو منحرفاً، وبالتالي يفرض هذا الانحراف على الأفراد الذين يستظلون به فقد أقامت الشريعة الغراء مؤسسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على المستوى الفردي والجماعي، وعلى الصعيد الخاص والعام، لضمان التوجيه السديد، وإيجاد المناخ الصالح، وتهيئة البيئة الخصبة، قال رسول الله ﷺ: «كلّكم راعٍ، وكلّكم مسؤول عن رعيّته، الإمام راع، وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله، وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده، وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في مالٍ أبيه، وهو مسؤول عن رعيته، فكلّكم راعٍ، وكلّكم مسؤول عن رعيته»[1]، وقال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فمن لم يستطيع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[2].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد عن ابن عمر.

(٢) رواه مسلم وأصحاب السنن الأربعة وأحمد، عن أبي سعيد الخدري.

كما تتجلّى مسؤولية المجتمع عن الفرد في مبدأ التكافل الاجتماعي والجهاد وحفظ الحقوق والأموال والأنفس بالعدل، وإقامة الجانب الثاني من مؤسسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الواقع على عاتق الدولة والأمّة، لقوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر﴾ آل عمران/١٠٤، ووصف القرآن الكريم المجتمع الفاضل بذلك في قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمّة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾ آل عمران/١١٠، وهدّد القرآن الكريم الأمّة التي ترضى بالمنكرات والظلم والطغيان الذي يصدر عن الأفراد، وبيّن لهم أنَّ الإثم يعمّ الجميع، وأنَّ البلاء ينذر المجتمع، فقال تعالى: ﴿واتّقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة، واعلموا أنّ الله شديد العقاب﴾ الأنفال/٢٥، وقال تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار، وما لكم من دون الله من أولياء، ثم لا تنصرون﴾ هود/١١٣.

وصور رسول الله ﷺ هذه العلاقة الوطيدة بين الفرد والمجتمع بقوله عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[١]، ويؤكد

---

(١) رواه مسلم وأحمد عن النعمان بن بشير.

رسول الله ﷺ هذا الترابط بين أفراد المجتمع، والتأثير المتبادل بينهم، ووجوب الأخذ على يد الظالم والمنحرف لإنقاذ الجميع بقوله عليه الصلاة والسلام: «مثل القائم في حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا ما استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا؟ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»[1].

وأهم الروابط الاجتماعية على الإطلاق الأسرة ورابطة الدم التي تتكون من مجموعة من الأفراد، ومن مجموع الأسر يتكون المجتمع فكانت عناية الإسلام بالأسرة جلية وصريحة منذ أوّل تكوينها باختيار الزوجين، ثم في تربية الأولاد بدءً من الحمل وانتهاءً إلى تحقيق العدل والتوازن والحكمة والتكافل والمساواة في تنفيذ الوصية والميراث بعد الموت، وتقرير مبدأ النفقة بين الأقارب.

وقد حرص الإسلام على وضع التشريع والنظام الاجتماعي على مختلف المستويات، وهي:

١ ـ الأسرة.

٢ ـ علاقة المسلمين فيما بينهم.

(١) رواه البخاري والترمذي وأحمد عن النعمان بن بشير.

٣ ـ علاقة المسلمين بغير المسلمين في ظل الدولة الإسلامية.

٤ ـ علاقة الدولةالإسلامية بالدول الأخرى.

٥ ـ علاقة الدولة الإسلامية بالمسلمين القاطنين خارج الدولة الإسلامية.

وهذه الروابط الأسرية والتشريعات الاجتماعية والأخلاق الفاضلة تدعو إليها النظم الأخرى، ولكن يبقى الفارق واضحاً، ويبقى أثر الدين متميزاً، لأنَّ هذه الروابط والأنظمة والأخلاق تعتمد في ظل الدين على العقيدة، وترتكز على الإيمان، وهذه العقيدة تكوّن رقيباً داخلياً ومحاسباً ذاتياً على الالتزام بالأخلاق، ومحاسبة النفس، وإحياء الضمير، في مراقبة الله تعالى في السر والعلن.

يقول الأستاذ أحمد الشرباصي عن الأخلاق والوازع الديني:

«إنّما يفعل الإنسان الخير، ويتمسك بخصال البر، ويتصرّف التصرف النبيل، ويتحلى بالخلق الجميل، لفائدة عاجلة يرجوها، أو لثواب آجل ينتظره، أو لضرر يريد دفعه، أو لإعجاب بالخلق الجميل في حدّ ذاته، دون نظر إلى ثواب أو إلى عقاب».

«والوازع الديني الصادق يحقق لصاحبه كل هذه المعاني فهو الذي يحدث صاحبه دائماً بأنَّ الدين خلق ومعاملة، وأنَّ

هذا الخلق المستقيم يجلب لصاحبه السعادة في الدينا والنعيم في الآخرة، ويصدّ عنه غضب الله وغضب الناس، ويحقق في نفسه الإحساس بالنبل والشعور بالجمال، والدخول في عباد الله الجميل الذي يحب الجمال، وبنيله رضى الله عنه، كما يرضيه عن الله عزّ وجلّ: ﴿إنَّ الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا، تتنزّل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنّة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم، ولكم فيها ما تدعون، نزلاً من غفور رحيم، ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً، وقال إنني من المسلمين!!﴾[1].

أمّا الأنظمة الوضعية فقد تدعو إلى الأخلاق، ولكن لا تؤمن الوسائل الكفيلة للتطبيق والتهذيب، لأنّها عاجزة عنها، ولا تملك الأساليب التي تحيي الضمير الذي يحاسب النفس والذات، وقد تدعو للأخلاق ولا تؤمن بها أو لا تلتزم بها، ويضاف إلى ذلك أنَّ بعض الأنظمة الوضعية تتعارض في حقيقتها وفلسفتها ووجودها مع القيم المعنوية، وتتنكّر للأخلاق والقيم الثابتة، وتفترض التطور في الأخلاق بما يناسب المبادىء المادية التي وضعتها بنفسها، فتجعل المادة أساس الحياة، وتخلق الطبقات في المجتمع، وتقيم أو

(١) بين الدين والدنيا، للدكتور أحمد الشرباصي: ١٠٩ ـ ١١٠، وانظر نظام الحياة في الإسلام، للمفكر الإسلامي أبو الأعلى المودودي: ١٦.

تفرض الصراع الطبقي بينهم لزرع الحقد والضغائن والكراهية في النفوس، لتكون النتيجة الضرورية لذلك أن يعتقد كل شخص أنه عدو للآخر من جهة، وأنَّ كل وسيلة تزيد في دخله الشخصي، وترفع من مستواه المادي، وتضيف شيئاً إلى ثروته، وتحقق له منفعة خاصة، فهي وسيلة سامية تتّفق مع مبادئه مهما كانت النتائج، ولو أدّت إلى إيذاء الآخرين، أو إضرار الغير، أو حرمانه من لقمة العيش، وإن كانت الوسيلة غصباً ونهباً ورشوة وسرقة كما نرى في حياتنا الحاضرة.

فالدين يهدف إلى إقامة المجتمع الفاضل الذي يقوم على الأخلاق والفضيلة والتكافل والتعاون والتراحم والمساواة، والذي ينفي من صفوفه الفحشاء والفقر والتفرقة والتخاذل والضعف.

فالدين إذن يهذّب الأخلاق، ويمنع الفساد الاجتماعي الذي يؤدي إلى انهيار الحضارات.

٢ - يعتبر الدين من أقوى الروابط التي توحد المجتمع، وتدعم كيانه، وتقوّي روابطه وتماسكه، وتجعل منه كتلة متراصة، تتعاون على الخير والبر والتقوى والعمل الصالح، وتحافظ على مقوّماته، وتدفع عنه غائلة الأعداء، ولذا يصون الدين المجتمع من الغزو الاستعماري، سياسياً وعسكرياً وفكرياً، واقتصادياً، لأنَّ الدين وسيلة إلى تحقيق الانسجام بين الجماعات، وذلك بإقامة الروابط والوشائج بين أصحاب

الدين الواحد، وإن تناءت بهم الديار والبلدان والأوطان[1]، فالمسلم يعطف على أخيه المسلم في جميع أنحاء العالم كلّما حزّبه أمر، أو وقع في محنة، أو ألمّت به مصيبة، وقد ظهرت هذه العواطف والمشاعر في العالم الإسلامي الحاضر في حالات كثيرة، وبسبب أحداث متعدّدة، منها: حادث إحراق المسجد الأقصى، والحرب الغادرة على باكستان، والحرب في أفغانستان، والحرب الأهلية في الهند بآسام، وفي حرب رمضان وقضية فلسطين والمسجد الأقصى وبقية المقدّسات الإسلامية في القدس الشريف.

وبالمقابل كان التعصّب الديني هو المحرك للحروب الصليبية في التاريخ القديم، كما نلمس اليوم تعاطفاً وتعاوناً بين اليهود في جميع أنحاء العالم، ونرى الارتباط بين الشيوعيين في مختلف الأقاليم والقارات.

وكان الدين هو محرِّك الثورات ضد المستعمرين في البلاد العربية وآسيا وإفريقيا لأنَّ الدين يوجّه الأمّة، ويصونها من الاضمحلال والذوبان والزوال مع غيرها، وثورة الجزائر أكبر مثل على ذلك، وكذا الثورات في الهند والفلبّين والملايو.

٣ ـ الدين سلطان يكفل مهابة النظام الاجتماعي في النفوس، ويمنع انتهاك حرماته، وذلك أنَّ كل نظام لا بد له من رادع وسلطة تضمن تنفيذه، وتلاحق من يخرج عليه،

(١) الدين والحضارة الإنسانية: ٢٢، الموجه الفنّي: ٣٣٣.

وتعاقب المخالف، مثل: قانون العقوبات، وجهاز الشرطة والأمن... ولكن تبقى جميع القوانين والمؤسسات والأجهزة عاجزة عن ملاحقة كل فرد بعينه، فالقانون أو الشرطي لا يطول كل إنسان، ولذلك يظهر عامل الدين كرقيب ذاتي داخلي، ويبقى المتديّن يشعر بمراقبة الله تعالى الذي يعلم السر وما تخفي الصدور، فيكوِّن هذا العامل أعظم سلطان يكفل حفظ النظام والأحكام والحقوق[1].

يقول المرحوم الدكتور عبد الله دراز: «فالذي نريد أن نثبته في هذه الحلقة أنَّه ليس على وجه الأرض قوّة تكافىء قوّة التديّن أو تدانيها في كفالة احترام القانون، وضمان تماسك المجتمع، واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه»[2].

ويقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي: «والشخص الذي وقر في سويداء قلبه وأعماق ضميره الإيمان القوي الصحيح بالآخرة يكون حاله كرجل يصحبه في كل حال من الأحوال رقيب يمنعه من كل إرادة تجرّه إلى السوء، يردعه عن اتّخاذ كل خطوة نحو الإثم، يؤنبه على كل عمل ينكره الإسلام سواء أكان في الظاهر بوليس يقبض عليه أم بينة تدينه، أو محكمة تعاقبه أو رأي عام يلومه على ما يفعله أم لا يكون،

---

(١) الأصول العامّة لوحدة الدين الحق: ٢٤، الإسلام وحاجة الإنسانية إليه: ٢٦٧، الدين والحضارة الإنسانية: ٨٩.

(٢) الدين، له: ١٠١.

إذ يستقر في نفس الإنسان حسيب صعب المراس لا يجرؤ الإنسان ـ خشية منه ـ أن يتهرّب من فرائض الله تعالى في الخلوة أو في الغابة أو في الظلام أو في البادية، ولا يقدر على اقتراف ما حرّمه الله، وإذا اقترف ـ على سبيل الافتراض ـ يندم على ذلك ويتوب إلى الله».

«ولا نجد سلاحاً أقوى من ذلك للإصلاح الخلقي وتنشئة الإنسان على السلوك المستقيم، فالقيم الثابتة التي يعطيها قانون الله الذي هو أسمى من كل شيء لا يستطيع الإنسان أن يعضّ عليها بالنواجذ، ولا أن ينصرف عنها بحال من الأحوال إلّا بفضل هذه العقيدة، أي: الإيمان بالآخرة»[1].

والسبب أنَّ تصرفات الإنسان وحركاته تنبع من فكره وقلبه وعقله، وتتوجّه حسب ما تمليه عليه عقيدته وقيمه، وليس العكس كما يدّعي ماركس.

يقول الأستاذ العقاد: «والغالب على الأمور القانونية أنّها إرادية تكتفي بتحقيق السلامة، ولا تذهب وراء الأسلم الألزم إلى شوط بعيد».

«والغالب على الأوامر الأخلاقية أنَّها لدنية تعلم فيها الإرداة شيئاً، ولكنّها لا تعمل كل شيء، بل يتولى الشعور

---

(١) انظر مجلّة حضارة الإسلام: عدد ٥ ـ ٦ لعام ١٣٩٦ ـ ١٩٧٦ صفحة: ٢١.

أهم البواعث في أعمال الأخلاق، ويشاهد فيها كثيراً نزوع إلى ما وراء السلامة واللزوم، وتفضيل للأجمل الأمثل من الأمر، فصاحب الوازع الأخلاقي لا يقنع بفروض القانون، ولا يزال متطلعاً إلى درجة أعلى من درجات القانعين باجتناب العقاب والتزام أدنى الحدود».

«أمّا الغالب على الأوامر الدينية أو آداب العقيدة فهو الشمول الذي يحيط بالإرادة والشعور والظاهر والباطن، ولا يسمح لجانب من النفس أن يخلو منه، ولا يقنع بالسلامة أو بالجمال، إلاّ أن تكون معهما الثقة التي لا تتزعزع في صميم الحياة، بل في صميم الوجود»[1].

٤ ـ الدين يحقق التوازن بين الفرد والمجتمع، فلا يطغى الفرد ويستأثر بالحقوق، ولو أدّى الأمر إلى شقاء المجتمع كما هو الحال في النظام الرأسمالي، ولا يستبد المجتمع بالفرد، ويتحكّم فيه ويسلخ منه قيمته وخصائصه وفطرته ووظيفته في الكون، وهو ما تحاوله الشيوعية لتجعل من الفرد آلة للإنتاج وعبداً للدولة أو للحاكمين فيها.

وإنَّ الدين الذي يحقّق للفرد تنمية العقل وكمال النفس وتهذيب الروح وتقوية الجسد يؤدي إلى إصلاحه، ويكون صلاحه وإصلاحه صلاحاً وقوّة للمجتمع، لأنَّ المجتمع مجموعة أفراد، وإن الأمّة تتكون من مجموع أفرادها، وإنّ بناء الأمّة

(١) الإسلام في القرن العشرين: ٢٦.

على أكتاف أبنائها، وإنّ قوة الأمة من قوّة العناصر فيها، وإنَّ صلاح المجتمع يتحقق عند صلاح الأفراد.

ومن جهة أخرى، فإنَّ المجتمع يتكـوّن من مؤسسات وهيئات وجهات متعدّدة، فإن تقدّمت جهة على أخرى وقع الاختلال في المجتمع، والفساد في الأفراد، فمثلاً فإنَّ التقدّم في العلوم اليوم، والترقّي في المدنيّة والحضارة، مع التخلّف في الطاقات الروحية والأخلاقية، أو الضمور والانكماش في المبادىء السامية والقيم الإنسانية، أدّى إلى شقاء المجتمع، وسيطرة المادة عليه، وأصبح الفرد عبداً لـلآلة والتقنيـة، وضعف الوازع الديني، وفقدت الثقة بالدين نفسه، ثم زاد الانحراف، وتصدّع البناء الاجتماعي، وحينئذٍ تأتي وظيفة الدين الإنسانية بإقامة التوازن بين جميع النواحي الاجتماعية، دون أن يسيطر جانب على جانب، أو يهتم بناحية ويعرض عن أخرى، أو يستأثر بميزات وخصائص، ويحرم منها غيره.

فـلا بد في التنـظيم الاجتماعي ـ على نـطاق الآداب والأخلاق أو على مستوى التعامل اليومي، أو على صعيد التشريع والنظام ـ لا بدّ أن يقوم هذا التوازن بين الروح والجسد، وبين الحياة المادية والحياة الروحية، وبين القيم والمبادىء النظرية مع المصالح والمنافع العملية، وإلّا تسرّب الانهيار إلى المجتمع، وبرز التفكك في بنيانه، وإن حاول المشرع الوضعي أن يصلح في ناحية دون أخرى فلا يجدي

الإصلاح لوجود هذا الشرخ والتناقض في التوجيه، وإن سعى المشرع الوضعي إلى إصلاح المعاملات والتشريع بالقوانين مثلاً مع فساد الأخلاق، ونسيان القيم والمبادىء، فسعيه كمن يضع رأسه في التراب ويعتقد أنَّ الناس لا تراه، أو كمن يزرع في الرمال، أو كمن يضع النقود في كيس مثقوب، أو في جيب مفتوح الأسفل، لا يمسك على شيء، ولا يحافظ عليه، فمثلاً: قانون السير مع فساد الأخلاق وقلّة التربية وفقدان الوازع الديني أدّى إلى رفع تسعيرة الرشوة، وكذا سنّ التدابير والإجراءات الإدارية وحصر المواد الاستهلاكية أدّى إلى وجود السوق السوداء في كل طرف وجانب، ومثل وجود اليمين في القضاء، وقبول الشهادة في الدعوى مع فقدان العقيدة والتربية والضمير والوازع الديني،، ومع نمو النزعة المادية والجشع المادي أدّى إلى الإسراع في اليمين الكاذبة، أو التبرع بشهادة الزور مقابل دراهم معدودة.

والمجتمع كالفرد لا يصلح إلاّ بإقامة هذا التوازن والتكامل في الالتزام بالعقيدة والتحلّي بالأخلاق، ومراعاة الشعائر والواجبات الدينية، وتوفير التشريع الربّاني والنظام السديد.

٥ ـ **وأخيراً فإنَّ الدين** ـ من الناحية التاريخية ـ يشكّل شطراً جوهرياً من كيان أمّتنا التي ورثت العقيدة من الأجداد والأسلاف عن طريق التضحية والفداء، وأصبح الدين يجري في عروقنا مجرى الدم، كما أنّ بلادنا مهبط الرسالات

السماوية، ومنطلق الأديان، وهي محط أنظار البشرية في الشرق والغرب، وتهوي إليها أفئدة الناس جميعاً، فيجدر الاستفادة من هذه المعاني، مع المزيد من الاحترام والتقديس والتمسّك بالدين، والاهتمام بتدريسه للحفاظ على هذه الثروة والطاقة في نفوس الأمّة وأفراد الشعب، ولنربط الحاضر بالماضي، وندفع بالأفراد والمجتمع نحو المستقبل الأفضل.

ويبقى الدين اليوم هو الأمل لدى جماهير الأمّة لتحقيق ما تصبو إليه من السعادة والنصر والوحدة والتفاؤل والتقدّم إلى الحياة الرغيدة مهما حاول الاستعمار وأتباعه إبعاد الدين عن الحياة والحكم والسلطة، كما فعل كمال أتاتورك في تركيا، مع أنَّ الدين يسري في قلوب الناس وفي حياتهم ومشاعرهم في كل لحظة، وفي كل تصرّف من تصرفاتهم اليومية(١).

وبقيت نقطة أخيرة وهي السؤال عن مصير الدين أمام التقدّم العلمي اليوم، وهل تبقى وظيفة الدين في الحياة كما كانت عليه في القديم؟ وهل تبقى الحاجة إليه موجودة؟ وهل يغني العلم والمكتشفات الحديثة عن وظيفة الدين؟.

والجواب عن هذه الأسئلة هو موضوع الفصل القادم.

---

(١) انظر: الدين والحضارة والإنسانية: ٢٠ وما بعدها.

الفصل الخامس

الدّين والعلم

يشيع على ألسنة كثير من الناس لفظ العلم والتقدّم العلمي، ويحاول المنحرفون أن يستغلّوا هذه الألفاظ، ويتّخذوها ثغرة للتشكيك في وظيفة الدين وأهميته في الحياة وحاجة الناس إليه، وإذا سمعوا بالحجج السابقة والبراهين المتقدّمة عن البواعث الفطرية للتديّن وأثر الدين في حياة الفرد والمجتمع أثاروا هذه الشبه مرّة ثانية، وأنَّ الدين الذي لعب دوراً بارزاً في القديم لم تبق له هذه المكانة، ويمكن الاستغناء عنه مع تقدّم العلم والمدنية والحضارة، وأنَّ العلم حلّ، بل يجب أن يحلّ محل الدين لما يقدّمه للبشرية من خدمات ورفاهية، ومعارف ومكتشفات، أصبحت في خدمة البشرية، وصار الناس يستخدمونها في حياتهم وأعمالهم.

والحقيقة أنَّ هذه الشبه والافتراءات والأسئلة تنطوي على

تمويه وتلفيق ومراوغة ومكر وخداع للبسطاء والسذج من جهة، ومن جهة أخرى فإنَّها تضع أيديها في آذانها، وتطمس أعينها وتحجب عقلها عن المفهوم الصحيح للدين الذي عرضناه في الفصل الأول؛ وإزالة لكل لبس أو اشتباه، وتنويراً لمن يريد الحق، ويبحث عن الحقيقة فإنَّنا نبيّن بإيجاز واختصار وظيفة العلم ومجاله، وموقف الدين منه، ومدى الارتباط بين الدين والعلم.

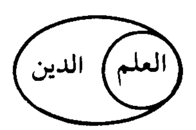
أولاً - وظيفة العلم ومجاله: إنَّ وظيفة العلم والمجال الذي يعمل به والدائرة التي يدور فيها والإطار الذي يغطّيه محصور في النواحي الحسّية، ويقتصر على الأمور التجريبية التي تخضع للتجربة وتدركها الحواس من السمع والبصر واللمس والشم والذوق، وهي أمور مادية محضة فالعلم يقف عند حدودٍ لا يتجاوزها.

أمّا وظيفة الدين في الحياة فإنَّها ذات مجال رحب، وتعمل في دائرة أوسع بكثير جداً وتخرج عن هذا الإطار بأضعاف مضاعفة، فيبحث الدين عن الكون وما وراء الكون، ويتحدّث عن المادة والروح، ويتناول الحياة وما وراء الحياة، ويدرك الأمور الحسيّة والقضايا الغيبية، ويهتمّ بالإنسان من النواحي الجسمية والروحية والنفسية والاجتماعية والتربوية... وغيرها من المسائل المعنوية التي لا يطولها العلم، ولا تدخل تحت وسائله المادية التجريبية المحدودة.

ويضاف إلى ذلك أنَّ الدين يدعو إلى العلم، ويرشدنا إلى أسرار الكون، ويحثّنا على كشف ما فيه ويمنّ علينا أنّه سخر لنا ما في الأرض جميعاً، ولذلك فكل ما وصل إليه العلم من اختراعات واكتشافات، وكل ما قدّمه للبشرية فهو جزء من دعوة الدين، مع التنبيه المتكرّر إلى المفهوم الصحيح للدين الذي حدّدناه سابقاً، وهو دين الله الحقيقي، وهو الإسلام ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ الذي دعا إلى العلم، وجعله فرضاً عينياً أو كفائياً على المسلمين، ولا نعني بالدين المفهوم الكهنوتي الكنسي الذي حارب العلم وحجر على العلماء وقتل المخترعين والمكتشفين وفرض على الناس تفسيرات باطلة، وسخافات ساذجة، وتأويلات باطلة صبغوها باسم الدين، علماً بأنَّ هذه القضايا تدركها الحواس وتخبرها الوسائل والأدوات المادية، وتستطيع الوصول إلى غورها بالبحث والمشاهدة والتجارب والتفكير، وتدخل تحت مقدور الإنسان، فلا تحتاج إلى وحي السماء ولا إلى أخبار الرسل والأنبياء ولذلك لم تأت بها الكتب السماوية، وإنَّما اقتصرت على مجرد الإشارة إلى بعض أسرار الكون وأرشدت إلى وجوب الاستفادة منها والسعي وراءها.

ولذلك فإنّ مجال الدين الصحيح أوسع بكثير من مجال العلم، فالدين يشمل كل شيء في الحياة الدنيا، ويفتح لنا نافذة على الحياة الأخرى، وإذا أردنا التمثيل الهندسي للدين والعلم فتكون دائرة الدين كبيرة جداً، وقد يصعب تقدير

محيطها، ويمثل العلم دائرة صغيرة ضمن دائرة الدين، وقد يتغيّر محيط دائرة العلم ضيقاً واتساعا، وقد تنقص وتزيد، وقد تضمر وتنمو، حسب التقدّم العلمي والرقي الحضاري والاكتشافات الكونية والتطور التقني في الوسائل والأساليب.



وينتج عن معرفة مجال العلم ومجال الدين أنَّ العلم عاجز عن قضايا كثيرة لا تدخل في إطاره، ويستحيل عليه معرفتها لأنّها خارجة عن نطاقه وإمكانيته ومجاله واختصاصه، مع أنَّها تشغل العقل البشري قديماً وحاضراً ومستقبلاً وتدور في خلده، ويسأل عنها، ويبحث عن جوابها دون جدوى، مما يستوجب أن نتلمّس لها مصدراً آخر غير العلم، ونكون بحاجة إليه ليمدّنا بالمعرفة مما يعجز عنه العلم وهذا المصدر هو الوحي والدين الذي يجيب عن القضايا الخطيرة؛ وأهمها:

١ ـ **معرفة الغيب**: سواء كان في الدنيا أم في الآخرة، في الماضي السحيق أو المستقبل، فالعلم مثلاً يعجز عن معرفة المستقبل سواء كان بعيداً لشهور وسنوات، أم كان قريباً لساعة ولحظات، كما أنَّه عاجز عن معرفة أصل الكون والحياة، ومبدأ الكون والحياة، ومبدأ الخليقة والإنسان، والهدف من وجود الإنسان، والغاية من الحياة ونهاية الكون

والإنسان والحياة، ومصير الكون والإنسان، فلا يعرف العلم حقيقة الموت الذي يرى أثره بالعين، ويعجز أكثر من ذلك في معرفة ما بعد الموت والفناء، وغير ذلك من المعارف التي يقف العلم أمامها حاسراً، لذلك تفضّل الله على عباده بها عن طريق الوحي والدين[١].

٢ - **قضية الخلود** في الأرض التي يطمح إليها الإنسان ويسعى جاهداً للبقاء ما أمكنه، ويبذل طاقاته لحصته فيها وإبعاد الموت عنه، فهل يمكن للعلم أن يزيد في عمر إنسان لحظة واحدة أو يوماً واحداً؟.

إنَّ التقدّم العلمي السريع في الطب والجراحة والأدوية يستطيع أن يوفر للإنسان حياة أفضل، وسعادة أكثر، وراحة أرحب، ولكنّها تعجز عن أن تمنحه لحظة زيادة في عمره، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ الأعراف/٣٤، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها»[٢].

٣ - كما يعجز العلم بشكل ملموس في القضايا النفسية التي تشكّل شطراً بارزاً في حياة الإنسان في الدنيا، فلا يمكن للعلم أن يمنع عن الإنسان القلق، ولا يستطيع أن ينزع منه الخوف إذا تعرّض لأسبابه، سواء كان الخوف من

---

(١) انظر كتاب الزميل الفاضل الدكتور عدنان زرزور: مقالة في المعرفة.
(٢) هذا طرف من حديث رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي أمامة.

أسباب مادية، أم من أسباب معنوية كالخوف من الموت، والخوف من الحوادث، وإذا قدّم العلم أحدث ما وصل إليه من وسائل المواصلات كالسيارة والطيارة والصاروخ فإنّه عاجز عن ضمان السلامة فيها، وإذا تعرّضت لخطرٍ أو عطل أو حادث، فالعلم أعجز ما يكون عن غرس الطمأنينة في نفس الراكب ووقايته من الخوف والاضطراب، مع انتشار الأمراض النفسية في الدول الصناعية على نطاق واسع.

كما أن العلم عاجز عمّا يخرج عن نطاقه ولا يخضع للحس والتجربة والمشاهدة وأكبر مثل على ذلك روح الإنسان وعقله، فما هي الروح، وما هو العقل؟؟.

كما أنَّ العلم لا يتناول القضايا الإنسانية كالأخلاق التي تقوم عليها الشعوب والأمم والحضارات، لذلك فإنَّ الأخلاق تعتمد على الدين الذي يدعو إلى الأخلاق الفاضلة، ويحدّد مدلولها ومفهومها ومداها، ثم يكسبها صفة القدسية الدينية، وهذا كفيل بحفظها وبقائها واستمرارها.

يقول المربّي الفرنسي بياجيه: «الأخلاق بلا دين عبث».

ثانياً: إنَّ التقدّم العلمي ـ قديماً وحديثاً ومستقبلاً ـ محصور في تفسير ظواهر الكون المرئية المحسوسة، دون أن يستطيع العلم التأثير في حقيقتها وكيانها، وهو عاجز عن التأثير في جوهرها، أو التغيير في تركيبها، أو التعديل في نظامها، فالعلم الذي اكتشف تركيب الهواء والضغط الجوي

ووصل إلى القمر لم يستطع ـ ولن يستطيع ـ أن يغيّر في تركيب الهواء، أو يزيل أثر الضغط الجوي، أو يبدل في نظام القمر، وإذا كانت الإنسانية اليوم تقدّم وتبذل وتنفق وتسرف بالمليارات للوصول إلى المريخ فإنَّ الهدف المبتغى من كل ذلك هو أمر بسيط تافه، لا ينفع البشرية ولا يضرّها بشيء، وهو اكتشاف الحياة على سطح المريخ، فأين العلم إذن من حقيقة المرِّيخ والكون من ورائه؟ وإنَّ علم الطب والتشريح قد اكتشف معظم الأجهزة العاملة في جسم الإنسان كالجهاز العصبي والهضمي والتنفّسي ودوران الدم وجهاز البصر والسمع والشم، ولكن هل استطاع العلم، أو هل يستطيع، أن يعدل في نظامها، أو يغيّر من تركيبها؟ فضلاً عن إيجاد البديل والمثيل لها؟.

إنَّ عملية جراحية في زرع القلب أو فتح الرأس تشغل العالم أجمع ويتناقل أخبارها ذوو الشأن والاختصاص، ويتباهى بها كل إنسان، ولم يثبت لها إلاّ النجاح النسبي أو المؤقت، فماذا نقول، أو ماذا يقول العلم، أمام الخلق والإيجاد لملايين القلوب وملايين الأجساد والأدمغة والرؤوس التي تتكون في ظلمات ثلاث، ولا تكلّف إلاّ كلمة ﴿كن فيكون﴾؟ تبارك الله أحسن الخالقين.

ثالثاً ـ إنَّ المسائل الكونية التي تخضع لسلطان العلم، وتدخل في نطاقه ودائرته، وتتم عليها التجارب والمشاهدات،

ويختص بها العلماء ـ إنَّ هذه المسائل الكونية العلمية لم يقطع العلم إلّا بجزء يسير من حقائقها، ولم يجزم إلّا أحياناً بالنتائج التي توصّل إليها، وإن أكثر المسائل المطروحة على نطاق البحث العلمي لا تزال في حيز الاحتمالات والتكهّنات، وفي مجال الفرضيات وتتعرض لاحتمال الخطأ والصواب، وإنّ الأمور اليقينية القطعية التي وصل إليها العلم لا تزال محدودة، فما بالك في المغيبات وما وراء الطبيعة؟ فإنَّه لن يصل إلى نتيجة فيها قطعاً؟.

إنَّ العلم التجريبي الناجح المتطور المتقدم في عصرنا الحاضر لا يزال في أول الطريق، وإن المجهول أكثر من المعلوم بمئات المرات، سواء في علم الطب ووظائف الأعضاء المعقّدة كالغدد والكبد والدماغ والقلب أو الفلك والأجرام والمجرّات والكواكب القريبة والبعيدة أو الكون أو عِلم الطبقات أو الذرّة أو التشريح. . . ، مما يصرح به أساطين العلم، كل في اختصاصه.

يقول عالم الأحياء الكبير ألكسيس كاريل: «فنحن لا ندرك غير جوانب من الإنسان وأجزاء منه، بل إنَّ هذه الأجزاء ليست سوى نتاج طرائقنا في البحث، ليس كل منّا غير موكب من الأشباح، تسير وسطها الحقيقة التي لا يمكن معرفتها» ثم يقول:

«الواقع إنَّ جهلنا مطبق. . فأكثر الأسئلة التي يطرحها من يدرس أفراد الإنسان بقيت دون جواب. . ولا تزال مناطق

شاسعة من عالمنا الداخلي غير معلومة... كيف تتوافق جزئيات المواد الكيميائية فيما بينها لتكوين الأعضاء المعقّدة الانتقالية للخلايا؟ كيف تحدد الموروثات التي تحتوي عليها نواة البويضة المخصبة مميزات الفرد الذي ينبثق من هذه البويضة؟ كيف تنتظم الخلا يا من تلقاء نفسها في جماعات هي الأنسجة والأعضاء؟ وكأنّها أشبه شيء بالنمل والنحل، تعرف مقدّماً ما هو الدور الذي ينبغي لها أن تلعبه في حياة الجماعة، ولكنّنا نجهل الآليات التي تعينها على بناء كائن عضوي معقّد بسيط معاً، ما هي طبيعة عمر الكائن الإنساني والزمن السيكولوجي؟».

«نحن نعرف أنّنا نتكون من أنسجة وأعضاء وسوائل وشعور، ولكن العلاقات التي تربط بين الشعور والخلايا المخّية لا زالت سراً غامضاً... بل إنّنا نجهل فسيولوجية هذه الخلايا... إلى أي حد يمكن أن يتغير الكائن الحي بفعل الإرادة؟ كيف تؤثر حالة الأعضاء في النفس؟ على أي نحو يمكن أن تتغيّر المميزات العضوية والعقلية التي يرثها كل منّا عن أبويه بفعل نمط الحياة والمواد الكيميائية في الأغذية، والمناخ والنظام والعادات الفسيولوجية والنفسية؟».

«نحن بعيدون عن معرفة العلاقات التي توجد بين نمو الهيكل العظمي والعضلات والأعضاء وبين نمو النشاط العقلي والروحي، كذلك نحن لا نعرف ما الذي يسبّب توازن

الجهاز العصبي ومقاومة التعب والجرأة؟ . . . ما هي الأهمية النسبية لأوجه النشاط الفكري والخلقي والفني والصوفي؟ ما هو مدلول الشعور بالجمال والتديّن؟ أي شكل من أشكال الطاقة هو المسؤول عن التواصل عن بعد؟».

«توجد بكل تأكيد بعض عوامل فسيولوجية ونفسية تسبّب هناء كل واحد منّا أو شقاءه، ولكنها مجهولة، ويتعذّر علينا أن نخلق المقدرة على السعادة».

«ونحن لا نعرف ـ بعد ـ أي وسط يهيىء خير نمو للإنسان المتحضّر، هل يمكن القضاء على النضال والجهد والألم في كياننا الفسيولوجي والنفسي؟ وما السبيل إلى تحاشي انحطاط الأفراد في حضارتنا الحديثة؟ ويمكن أن يوجه عدد كبير من الأسئلة الأخرى عن الموضوعات التي تعنينا. وستبقى هذه الأسئلة بدون جواب هي الأخرى».

ثم يختتم حديثه فيقول: «من المؤكد تماماً أنَّ الجهد الذي بذلته كافة العلوم التي تبحث في الإنسان قد ظلّ ناقصاً، وأنَّ معرفتنا لأنفسنا لا زالت جدّ ناقصة»[١].

لقد نقلنا هذا النص الكامل الطويل الذي يكشف عن عجز العلم عن معرفة حقيقة الإنسان وطبيعته، وعجز العلم عن

---

(١) الإنسان ذلك المجهول، ألكسيس كاريل: ٢٣ ـ ٢٤.

معرفة وظائف الجسم، وكيف يعمل كل عضو فيه؟ ولذلك سمى كتابه: «الإنسان ذلك المجهول»، وإذا كان عجز العلم لا يزال في هذا الحد والمستوى عن الإنسان الذي يعتبر قطب الرحى في المجال العلمي، ويظفر بنصيب الأسد في البحث والاهتمام والجهد العلمي، فما بالك عن عجز العلم عن معرفة غير الإنسان من الكون الكبير والحياة الواسعة.

إنَّ هذا النص الطويل جواب قاطع لأولئك الذين يتغنّون بالعلم، وينادون بالعلمنة، وكأنّ العلم عصاً سحرية تحقّق لهم المعجزات، وتلبّي لهم الرغبات، وتنقلهم إلى الغايات والخيالات، بينما يعلن العلم والعلماء أنّهم عاجزون عن كل ذلك، وأنَّ العلم لا يزال يحبو في سيره، بل لا يزال في أوّل الطريق.

رابعاً - إنَّ العلم سلاح ذو حدّين، يستعمل للخير كما يستعمل للشر، وإنّ التقدم العلمي الذي يهيىء للإنسان والبشرية حياة أرغد، وسعادة أطيب، ورقياً واسعاً، فإنَّه يهدد الإنسان والبشرية بالخراب والدمار والإبادة.

إنَّ اختراع الذرّة يمكن أن يكون من أجل السلام العالمي والتقدّم الحضاري، كما يمكن أن يكون للحرب وإبادة الشعوب وتشويه معالم الإنسان والكون.

وإنَّ اختراع الأدوية والتقدّم العلمي في مجال الطب يساعد الطبيب الحكيم على معالجة المرضى وإزالة الآلام،

ولكنّه قد يكون وسيلة ميسّرة للطبيب الجزار في قتل النفس الإنسانية في ثوان معدودة، دون أن يطوله قانون أو يضبطه شرطي.

وإنَّ التسارع العلمي في مجال الفضاء والكون قد يكون لخدمة الإنسانية في السفر والاتصال وتبادل الخبرات والمعارف والعلوم والمواد الإنتاجية والصناعية، ولكن قد يكون للتجسس واستعمار الشعوب وسرقة خيراتها.. أو لإبادة البشرية في حرب نووية. وهكذا.

ولذلك فلا بد للعلم من تربية عالية، وتوجيه سديد، وعقيدة بنّاءة، وإيمان راسخ، ودين رشيد، يوجّه العلماء لتسخير العلم إلى خدمة البشرية، ويكبح جماح النفوس الشريرة، ويمنع استغلال المكتشفات للأغراض الدنيئة، ونستطيع أن نقدّم من الحياة المعاصرة أمثلة عملية وحججاً واقعية، وبراهين جازمة لأدعياء العلم والعلمنة ليقنعوا أنفسهم وليخفّفوا من غلوائهم، وليعودوا إلى الحقيقة، ويعترفوا بها ويلتزموا بحدودها[1].

إنَّ التقدم العلمي والحضارة الماديّة الراقية في أمريكا لم يكبح جماحها في استخدام القنبلة الذرّية في هيروشيما وناغازاكي في الحرب العالمية الثانية، وإنَّ التقدم العلمي

---

(١) أمّا شعار العلمانية الذي ظهر في الغرب فإنّه خداع في المجتمع الحديث، وإنَّ المجتمع في أوروبا مجتمع مسيحي، كما يقول الدكتور محمد البهي في كتابه: الدين والحضارة الإنسانية: ١٢ ـ ١٦.

والمكتشفات الحديثة لم تمنع الولايات المتّحدة الأمريكية من إعلان الحرب في فيتنام وإرسال الجيوش إليها وإمداد قواتها بكل وسائل الدمار والقتل والتخريب للأرض والإنسان؛ وهل حقّق العلم أغراضه داخل الولايات المتّحدة بالتمييز العنصري مع السود؟.

وإنَّ التقدّم العلمي والمستوى الراقي والمبادىء البرّاقة وإعلان حقوق الإنسان في فرنسا لم يمنعها من استعمار الأمم واحتلال بلادنا ومقدّساتنا واستنزاف خيرات الشعوب العربية والإفريقية والآسيوية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

وإنَّ العلم الحضاري الذي وصلت إليه بريطانيا لم يعترضها في استعمار مختلف القارات، ولم يقف حائلاً بينها وبين التآمر على الشعوب وتقسيم المعمورة بينها وبين الدول الاستعمارية الأخرى، بل إنَّ العلم المادي الذي يتغنّى به الناس لم يقف حجر عثرة في وجه بريطانيا في استعمار فلسطين وتقديمها لقمة سائغة إلى العصابات الصهيونية لاغتصاب الأرض وتشريد الشعب وطرده من أرض آبائه وأجداده.

وإنَّ العلم المتقدّم في روسيا لم يحل بينها وبين الغزو الإرهابي على بلغاريا، ولم يمنعها من إنزال خمسة آلاف دبّابة وطائرة لغزو تشيكوسلوفاكيا في ليلة ظلماء داكنة، أو لاحتلال أفغانستان، وباختصار فإنَّ قادة الاستعمار والاستغلال والاستعباد للشعوب في العصر الحديث هم روّاد العلم

وأصحـاب التقدّم المـادي والمدنيـة والتقنبـة الصنـاعيـة، والحضارة الماديّة، وليسوا من الشعوب المتأخّرة أو القبائل الهمجية، أو الأمم الجاهلة.

هذا من نـاحية الـدول، أمّا من ناحية الأفراد فإنَّ مجرد المبادىء العلمية والتقدّم العلمي في الطب لا يحجب بعض الأطباء عن المتاجرة بالطب، ليكونوا جزّارين في عملهم، لا يهدفون إلّا إلى جمع الثروة والثراء ليكونوا من أكبر الأغنياء، وليتحولوا من عملهم الإنساني النبيل ليكونوا تجار بناء أو مقاولين أو متعهّدين.

وإنَّ المستوى الرفيع الذي وصله العلم في الهندسة لا يمنع المهندس من الغش والسرقة والاحتيال والرشوة وخيانة الأمانة وتبديد أموال الدولـة، وهكذا المحـامي والموظف والمـدير والمعلم والمـدرّس والطالب والضـابط والجندي والعامل والتاجر وربّ العمل والأب والابن والشريك والجار.

وإنَّ الحصول على أرقى درجة علمية لا يحجب صاحبها عن ارتكاب جميع الفواحش والرذائل والجرائم التي يندى لها الجبين، بدءاً من المجال السياسي حتى المجال الاقتصادي والأخلاقي، ويكفي أن نشير إلى بعض الأمثلة: فضيحـة ووترغيت مع الرئيس الأمريكي نيكسون، قصة التجسّس مع المستشار الألماني فيلي برانت، الفضائح الأخلاقية مع عدد من الوزراء والنواب واللوردات في بريطانيا، فضيحة الرشوة

مع رئيس وزراء اليابان، فضيحة الرشوة مع أمير هولندا، هذا على المستوى الدولي أمّا على المستوى المحلّي فالأمثلة أكثر من أن تحصى، ويشعر بها كل فرد، حتى يكاد أن يقترن الفساد والرشوة والفتن مع أصحاب الشهادات والمثقّفين.

وبعد كل ذلك ألا يشعر كل إنسان أنَّ العلم يحتاج إلى رديف بل إلى غذاء ديني، وأنّه لا يمكن أن يحقق أهدافه إلّا إذا اقترن بالأخلاق القائمة على الدين، وهل بقي في نفس القارىء الكريم شبهة في ضرورة الدين وحاجة البشرية إليه.

والخلاصة أنّه لا تعارض بين وظيفة الدين وبين التقدّم العلمي، وأنَّ مجال كل منهما يكمل الآخر، وأنَّه لا تناقض بين العلم والدين، بل إنَّ التقدم العلمي الصحيح يزيد الثقة بأمور الدين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إنَّما يخشى الله من عباده العلماءُ﴾ فاطر/ ٢٨، لأنَّ العقل البشري محدود، وأنَّ النظام الدقيق للكون يؤكد وجود الخالق المبدع المنظّم، وأنَّه لا مجال للصدفة، ولا مكان لنسبة ذلك إلى الطبيعة، كما أنَّ الدين يدعو إلى العلم، ويرشد الناس إلى التعلم والبحث والاختراع والاكتشافات وتسخير كل ما في الكون والاستفادة منه، ولذلك يلخص الأستاذ العقاد هذا التأثير المتبادل والتكامل الدقيق بين الدين الصحيح ـ وهو الإسلام ـ وبين التفكير المؤدي إلى العلم والمعرفة والتقدّم والحضارة والمدنية، فيقول:

«ويحق للمسلم على الحالين أن يعلم أنَّ التفكير يوجب الإسلام، وأنَّ الإسلام يوجب التفكير»[1].

أقوال العلماء في الدين: ونختم هذا الفصل بأقوال أساطين العلم في عصرنا الحاضر، ونكتفي بذكر بعضها في هذا الموضوع[2]:

١ ـ يقول سالمونريناك: «ليس أمام الديانات مستقبل غير محدد فحسب، بل لنا أن نكون على يقين من أنَّه سيبقى كل شيء منها أبداً، ذلك أنّه سيبقى في الكون دائماً أسرار ومجاهيل، ولأنَّ العلم لن يحقق أبداً مهمّته على وجه الكمال».

٢ ـ ويقول الدكتور ماكس نوردوه عن الشعور الديني «هذا الإحساس أصيل يجده الإنسان غير المتمدّن، كما يجده أعلى الناس تفكيراً، وأعظمهم حدساً، وستبقى الديانات ما بقيت الإنسانية، وستتطور بتطورها، وستتجاوب دائماً مع درجة الثقافة العقلية التي تبلغها الجماعة».

٣ ـ يقول شاشاوان: «مهما يكن تقدّمنا العجيب في عصرنا الحاضر. . .، علمياً وصناعياً، واقتصادياً، واجتماعياً، ومهما يكن اندفاعنا في هذه الحركة العظيمة للحياة العلمية، وللجهاد والتنافس في سبيل معيشتنا ومعيشة ذوينا، فإنَّ عقلنا

(١) التفكير فريضة إسلامية، له: ٢٢٢.
(٢) انظر هذه التعريفات ومزيداً مثلها في كتاب الدين: ٨٤ ـ ٨٩.

في أوقـات السكـون والهدوء (عظاماً كنّا أو متواضعين، خياراً كنّا أو أشراراً) يعود إلى التأمّل في هذه المسائل الأزلية: لِمَ وكيف كان وجودنا ووجود هذا العالم؟ وإلى التفكير في العلل الأولى أو الثانية، وفي حقوقنا وواجباتنا».

٤ ـ يقـول أرنست رينان في تـاريخ الأديـان: «إنَّ من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبّه، وأن تبطل حـرية استعمال العقل والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي التديّن، بل سيبقى حجّة ناطقة على بطلان المذهب المادي، الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة للحياة الأرضية».

٥ ـ يقول الأستاذ محمد فريد وجدي تعليقاً على كلمة رينان: «نعم يستحيل أن تتلاشى فكرة التديّن، لأنَّها أرقى ميول النفس، وأكرم عواطفها، ناهيك بميـل يرفـع رأس الإنسـان، بل إنَّ هـذا الميل سيـزداد... ففطرة التـديّن ستلاحق الإنسان ما دام ذا عقل يعقل به الجمال والقبح، وستزداد فيه هذه الفطرة على نسبة علو مداركه ونمو معارفه».

٦ ـ يقول هنري برغسون: «لقد وُجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنّه لم توجد قط جماعة بغير ديانة».

٧ ـ ويعقب الدكتور دراز رحمه الله على هذه الكلمات

فيقول: «ولنقف قليلاً عند هذه الكلمة، لأنه قد يبدو من المفارقات العجيبة، أن يكون ازدياد العلم ونمو المعر فة سبباً في نمو غريزة التديّن، المبنيَّة على طلب الغيب المجهول، ولكنّنا لو تأمّلنا لتحقّقنا صحة هذه المفارقة ولعرفنا أنَّ تقدّمنا الحثيث في العلوم يقرّبنا حقيقة من الاعتراف بجهالتنا، والإقرار بأنَّ مثل ما نعلمه من الكون في جانب ما نجهله منه كمثل قطرة واحدة من محيط خضم عميق، ذلك أنَّ كل باب جديد يفتحه العلم من دلائل عظمة الكون وامتداده ينفتح معه أفق أوسع للسؤال عمّا يتصل بهذا الميدان الجديد من المشاكل الكثيرة الغامضة»[1].

ونختم الكلام بالتأكيد أنَّ التقدّم العلمي لا يؤثر من قريب ولا من بعيد في الأمور الغيبية التي تتوقف على الوحي الديني، ولا يطولها بالبحث، وأنَّ العلم يحقق الموضوعية والاعتراف بالقوة المدبّرة للكون، وأنّه من وجهة النظر الإسلامية فإنَّ هذه العلوم فرض كفاية يجب على المسلمين أن يتعلموها، وأن يشاركوا فيها، وأن تكون لهم اليد الطولى في حمل مشعل العلم والحضارة، كما حملها أسلافهم من قبل، وبذلك تتحقق رسالة السماء بالجمع بين أمور الدنيا والآخرة، وتتم خلافة الإنسان في الأرض، ويومئذٍ يفرح المؤمنون برضاء الله وتوفيقه.

---

(١) الدين، له: ٨٩ ـ ٩٠، وما بعدها.

وأخيراً فإنَّنا نحيل القارىء الكريم الذي يريد الحق والعلم إلى كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم» الذي كتبه نخبة من العلماء في مختلف الاختصاصات، لتدوين ما وصل إليه العلم الحديث.

خاتمة

الحاجة إلى الدين

وبعد هذا العرض السابق في الفصول الخمسة نطرح على أنفسنا أو نطرح على غيرنا، أو يطرح الآخرون علينا هذا السؤال: هل نحن بحاجة إلى الدين؟ وهل الناس اليوم بحاجة إلى الدين؟.

يظهر للقارىء الكريم، وللعاقل الرشيد، وللباحث المتجرد عن الأهواء والأحقاد، ولعشّاق الحق والحقيقة، يظهر لهم أنَّ وظيفة الدين في الحياة مهمّة وخطيرة وضرورية، كما يظهر لهم بواعثه الفطرية في النفس الإنسانية، وأثره البارز في حياة الفرد والمجتمع، وتبيّن للقارىء أنّ العلم لا يسد مسده، ولا يقوم مقامه، وأنّ الإنسان لا يؤدي غرضه في هذه الحياة، ولا يستكمل إنسانيته، ولا يلبي دوافعه وغرائزه وميوله، ولا تتحقق

له السعادة، ولا ينعم بالتوازن والاستقرار إلّا بالتديّن، وأنّ الدين جزء من حياة الفرد والمجتمع، وأنّهم بحاجة إليه كالطعام والشراب والغذاء فمن تخلّى عنه، أو أعرض عن الأخذ به فلا يكون إنساناً سوياً، وأقلّ ما يقال فيه إنّه شاذّ عن الفطرة الإنسانية والوجود البشري، ومثله كمثل من يحرم نفسه الفواكه أو الخضراوات أو اللحوم أو الطيّبات، أو يمتنع بصلف وإصرار عن التمتّع بأشعة الشمس وضوء النهار لعاهة في عقله أو لعقدة في نفسه، فيكون شاذّ الفكر، منحرف السلوك، وبالتالي فهو هزيل البنية، ضعيف الجسم، ينتظر حتفه رغم أنفه، ويلقى سوء خاتمته، والعياذ بالله.

استدراك وتنبيه:

وهنا لا بد من بيان وتوضيح عن الظروف والأحوال التي يطبق فيها الدين، لينتج الجانب الإيجابي أو السلبي من وجوده في الحياة والواقع، فنذكر الشروط الأساسية لتحقيق الجانب الإيجابي، ونشير إلى بعض الظواهر المرضيّة في الجانب السلبي.

الشروط الأساسية للتديّن:

الإسلام دين الله القويم الذي ارتضاه لعباده ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ المائدة/٣، وقد طبّق سلفنا الصالح الإسلام، والتزموه في الحياة، فحقّقوا العزّة والفوز في الدنيا، والسعادة والفلاح الدائم في الآخرة.

أمّا اليوم فتظهر أسئلة كثيرة، واستفسارات متعدّدة، وشكوك متلاحقة، وطعون مسمومة، وأوهام عابرة من تطبيق الإسلام، وتتبلور جميعها في ثلاثة اتجاهات:

الأول: يمثل أسئلة الملاحدة الذين يكفرون بالله والنبوة والأديان، ويشنون هجوماً على الدين كله، ويقولون إنّه عاجز عن إصلاح النفوس والمجتمع، ولا يحقّق إلّا تقدّماً وهمياً.

والاتجاه الثاني: ينبع ممن ينتمي إلى الإسلام بالاسم، ويحمل لقبه وشعاره، ولكنه جاهل به، ومتهرّب من أحكامه، ثم يقوم عن قصد وسوء نيّة بهدم الدين، والسخرية منه، والتشكيك بأحكامه، والطعن في مبادئه، مع ترديد شبهات الأعداء والمستشرقين، وكأنه منهم، أو عميل لديهم.

أمّا الاتجاه الثالث فيشيع بين عامة الناس، وينطلق من الواقع الملموس للمسلمين، والحالة السيئة التي يعيشها اليوم أكثرهم، وخاصة من يلتزم بتطبيق جانب من الإسلام، كالعقيدة مثلا، أو العبادة والطقوس الشكلية أو يقتصر على أداء أحد أطراف الإسلام وأحكامه، بينما يغفل عن بقية الدين، ويسير في حياته حسب العقائد الأخرى، أو المدنيات المادية، أو الاتجاهات المنحرفة، أو العقائد الباطلة، أو الحضارات الغربية، أو التقاليد النائية، فلا يظهر عليه ازدواج الشخصية فحسب، بل يحمل شخصيات متعدّدة، ويتقنّع

بوجوه متفاوتة، وهنا تثور الأسئلة حول هؤلاء: هل هذا هو الإسلام؟.

والواقع أنّ المسلمين اليوم وضعوا الإسلام في قفص الاتهام، ليتلقى السهام من جهل أتباعه، وحقد أعدائه في آن واحد، ثمّ يطلب منه بعد ذلك أن يصلح المجتمع، وينقذ الأمّة، ويحقّق العزّة والسعادة، ويتحدّى الحضارات والأديان والأفكار؟!.

وإذا أغفلنا الجواب عن أسئلة الملاحدة والأعداء والمستشرقين وأذنابهم، فإنّنا نتوجّه إلى الفريق الثالث الذي لا يزال يؤمن بالإسلام، ويأمل فيه الخير والنجاة، لنؤكد أنّ الإسلام لا يؤدي وظيفته، ولا يحقّق أهدافه وغاياته وأغراضه إلّا بثلاثة شروط أساسية، وهي:

١ ـ العلم بالدين بشكلٍ وافٍ وكافٍ ومفصّل.
٢ ـ الإيمان بكلِ ما جاء به الدين الصحيح، فلا يؤخذ بعضه، ويهمل بعضه الآخر.
٣ ـ الالتزام بأحكام الدين وتطبيقه.

وهذه الشروط بسيطة ومنطقية وبدهية، ولا تحتاج إلى عناية كبيرة، أو بحث مستفيض ولكنّها ذات أثر خطير وبارز.

وإنّ كل سوء أو ضرر نجم عن الدين أو باسم الدين كان بسبب فقدان هذه الشروط الثلاثة السابقة، أو فقدان أحدها،

وإنْ كل ثغرة في الدين استغلّها أعداء الدين، أو ردّدها الملحدون ليتّخذوا منها ثلمة في الدين، وطعناً بأهله، كانت إمّا بسبب جهل أهل الدين بدينهم، وإمّا بسبب النفاق وعدم الإيمان الحقيقي الكامل به، وإمّا بسبب الانحراف عن مبادئه، أو بسبب التطبيق الجزئي والجانبي لأحكام الدين، أو بسبب عدم الالتزام الكافي به، أو بسبب الفصل بين عقيدته وعباداته وأخلاقه وتشريعه.

وإذا تبنّى الدين من لم يؤمن به، أو كان جاهلاً بتفاصيله، أو كان متاجراً بمبادئه، أو منافقاً في عقيدته وإيمانه، أو مفرطاً في أحد جوانبه، فسوف تكون النتائج سيّئة لا محالة، والخطر عظيماً، وفي هذه الحالة فإنّ الضرر الناجم عن سوء تطبيق الدين أكثر بكثير من عدم الدين نهائياً، وإنّها أعمق في الآثار السيّئة، وأبعد في المدى المظلم.

ولذلك أكّد القرآن الكريم في آيات كثيرة على هذه الشروط، وحذّر سلفاً من فقدانها، وبين النتائج الوبيلة من انعدامها، ثم بيّن رسول الله ﷺ كل ذلك، ونبّه عليه في السنّة الصحيحة والسيرة الشريفة.

فعن الشرط الأول، وهو وجوب العلم بالدين بشكلٍ وافٍ، وردت آيات كثيرة تدعو إلى العلم ووجوبه، وتؤكد وجوب التعلّم والتعليم، منها قوله تعالى: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم

يحذرون﴾ التوبة/١٢٢، وقوله تعالى: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ السجدة/٢٤، كما وردت أحاديث مستفيضة، تحثّ على طلب العلم وتبيّن فضله وأثره، ومكانته في الدنيا والآخرة، منها قول رسول الله ﷺ: «ومن سلك طريقاً يلتمس به علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع، وإنّ العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء، ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنّما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[1]، ومنها قوله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[2]، وقوله ﷺ: «من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[3].

ثم أباح الإسلام التنافس في العلم، والتحاسد عليه من أجل الاستفادة بأكبر سهم منه وللحصول على ثمراته، وتقديمها للبشرية جمعاء، وحتى يكون العمل والسلوك والآداب والمعاملات وكل شيء في المجتمع تابعاً للعلم، ومتطابقاً مع أحكام الله. فقال عليه الصلاة والسلام: «لا حسد إلاّ في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق،

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن حبان في صحيحه والبيهقي عن أبي الدرداء.

(٢) هذا جزء من حديث رواه ابن ماجه عن أنس.

(٣) رواه البخاري ومسلم عن معاوية.

ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها، ويعلّمها»[1].

ولتحقيق الأهداف السابقة حذّر الرسول ﷺ من كتم العلم، لئلا تصل النتائج إلى هذا الدرك المسف، فقال عليه الصلاة والسلام: «من سئل عن علم: فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار»[2]، كما حذّر رسول الله من ضياع العلم ورفعه، وأنّه يؤدي إلى الضلال والإضلال والهلاك، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتّخذ الناس رؤساء جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلّوا وأضلّوا»[3].

وعن الشرط الثاني وهو الإيمان بكل ما جاء به الدين الصحيح، دون أن يؤخذ بعضه، ويهمل بعضه الأخر، ودون أن يتّخذ الدين للمتاجرة به، وجعله صنعة وحرفة، ويطبّق بعضه، ويتناسى الناس بعضه الآخر، يقول تعالى: ﴿ وآمنوا بما أنزلت مصدّقاً لما معكم، ولا تكونوا أوّل كافر به، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً، وإياي فاتقون ﴾ البقرة/٤١، ويقول عزّ وجل: ﴿فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً، فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم، وويلٌ لهم ممّا يكسبون ﴾ البقرة/٧٩،

(١) رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود.
(٢) رواه أبو داود والترمذي، وقال حديث حسن، عن أبي هر يرة.
(٣) رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

ويقول تعالى: ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب، وتكفرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزيٌ في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردّون إلى أشد العذاب، وما الله بغافل عمّا تعملون ﴾ البقرة/٨٥، وصرّح القرآن بكفر أولئك الذين يقولون: ﴿ نؤمن ببعض، ونكفر ببعض، ويريدون أن يتّخذوا بين ذلك سبيلاً، أولئك هم الكافرون حقاً، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ النساء/١٥٠ ـ ١٥١.

وإنّ أغلب ما تتقزز منه النفس اليوم يأتي من هذا الجانب في التطبيق الجزئي للإسلام، سواء من ناحية الفرد أو المجتمع أو الدولة، لأنّ هذا التطبيق يعطي صورة جانبية مشوّهة للإسلام، لا يقرّها الدين، ولا يقبلها العقل، ويبرأ منها الله تعالى، ويصيح الدعاة المخلصون من ويلها وشرورها، ومع ذلك تقدّم أمام المسلمين وغير المسلمين، وكأنّها الصورة السليمة والحقيقية للإسلام، مما ينفر منه الكثير، ويتحامل عليه الأعداء، ويكيد له المستشرقون، ويشهّرون به، ثم يثيرون الغبار والعواصف حوله، ويصدّرون بضاعتهم إلى عملائهم وأذنابهم في الوطن الإسلامي، ليرفعوا هذه الصورة الممقوتة المبتورة أمام الناس ليصدّوهم عن الدين.

وعن الشرط الثالث، وهو الالتزام بأحكام الدين وتطبيقه فعلاً، يقول تعالى، مندّداً بمن يعرف حكم الله ولا يطبّقه، وبمن يدعو الناس إلى دين الله وشرعه، ويعفي نفسه من

ذلك، يقول تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنـوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبـر مقتاً عنـد الله أن تقولـوا مـا لا تفعلون ﴾ الصف/٢ - ٣، ويقول تعالى: ﴿ أتأمرون الناس بالبـر، وتنسـون أنفسكم، وأنتم تتلون الكتـاب، أفـلا تعقلون ﴾ البقرة/٤٤، وبيّن تعالى منهج الأنبياء والدعاة المخلصين، والمؤمنين الصادقين، فقال تعالى: ﴿ قل: هذه سبيلي، أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتّبعنِي ﴾ يوسف/١٠٨، وقال تعالى: ﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله، ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتّقون ﴾ الأنعام/١٥٣، وقال تعالى على لسان شعيب: ﴿ وما أريد أن أخـالفكم إلى ما أنهـاكم عنه، إنْ أريـد إلّا الإصلاح ﴾ هود/٨٨، كما بيّن رسول الله ﷺ صورة من يدعو إلى عملٍ ثم يخالفه، فقال عليه الصلاة والسلام: «يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيُلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان، ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف، ولا آتيه، وأنهى عن المنكر، وآتيه»[1].

فإذا تحقّقت هذه الشروط الثلاثة، وكان المسلمون مؤمنين بدينهم أولاً، ويعلمون أحكامه ثانياً، ويطبّقونها كاملة على أنفسهم ثالثاً، فعندئذٍ يتحقّق الإسلام في الفرد، ويقـوم

(١) رواه البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد.

المجتمع الإسلامي، ويصبح المسلمون صورة صادقة طيّبة عن إسلامهم، ويتحقّق للجميع الفوز والسعادة، وإلّا وقع المرض في التديّن، وبـرز الجانب السلبي السيّء الـذي نعرضه في الفقرة التالية.

الظواهر المرضيّة للتديّن:

وُجدَ الدين في هذه الدنيا منذ أوّل البشرية، في الوقت الذي خرج سيّدنا آدم من الجنة، وحطّ قدمه على الأرض، وخاطبه ربّه بقوله تعالى: ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً، فإمّا يأتينكم مني هدى، فمن تبع هداي، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ البقرة/٣٨.

والتديّن ـ كما رأينا ـ فطرة ذاتية في النفس الإنسانية، ولا يمكن لها العيش السعيد، والراحة والطمأنينة، والسعادة، إلّا تحت ظلّه.

واستمرّ الدين يرافق البشرية في أطوار حياتها، ولم يخل مجتمع ولا أمّة من ظاهرة التديّن، ولم يمرّ زمن أو عصر بدون التزام بالدين، ولم تقم حضارة ولا أسست مدينة ولا نهضت أمة إلّا من وراء عقيدة دينية.

ولكن الدين الحق الذي أراده الله تعالى لصلاح عباده في الأرض. والذي يمتدّ من أوّل البشرية، وينبع من النفس والفطرة، وسيظلّ حتى النهاية، هـذا الدين لم يبق على نضارته، ونقائه، ولم يسلم على حاله، وإنّما عرضت له

ظواهر مرضيّة كثيرة، غيّرت جوهره، وعكّرت صفوه، وحالت دون تحقيق الهدف الأصلي منه، وتعدّدت هذه الظواهر المرضيّة هنا وهناك على مستوى الأفراد والمجتمع والدول، ممّا شوّه الدين في النفوس، والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ القديم والحديث.

ومن أهم الظواهر المرضيّة للدين عبر التاريخ ما يلي:

١ ـ ضعف الإيمان:

تعرّض الدين الحنيف للوهن والضعف في النفوس، وتحرّكت النزعة المادية في الإنسان، وطغى الشيطان على أتباعه من الإنس والجِن للتهرّب من أحكام الدين، والتفلت من زمامه، والتحايل عليه، والتلاعب على بعض جوانبه، وكانت النتيجة سوء الأحوال الخاصّة والعامّة تحت ستار الدين، وانتشار الفساد والضلال في الفرد والمجتمع، وبالتالي فقدت المقاصد الأساسية للدين، وتعرّضت المصالح الحقيقية للضياع.

٢ ـ المتاجرة بالدين:

وقام بعض حملة الدين باستغلاله والتستّر وراءه لتحقيق أغراضهم الشخصية، ومطامعهم الذاتية، وميولهم الدنيئة، وشهواتهم الحيوانية، واتّخذوا الدين سلعة للمتاجرة والمساومة لسلب خيرات الناس، وابتزاز أموالهم، والوصول باسم الدين إلى المناصب والمراكز، والتمتّع بشهوة السلطة، وفرض النفوذ على الآخرين، فكانوا أسوأ مثل لرجال الدين.

٣ ـ إضفاء الصفة الدينية على الفلسفة والآراء:

وظهر في مناطق متعدّدة من أرجاء المعمورة، وفي أحقاب زمنيّة مختلفة، ظهر عدد من الفلاسفة والمفكّرين، وأراد هؤلاء الفلاسفة أن ينشروا فلسفتهم وأفكارهم بين الناس، فاستغلّوا مكانة الدين في النفوس، وأضفوا على فلسفتهم وأفكارهم الصفة الدينية، وألبسوها رداء الدين، ليضمنوا الاقتناع بها بسرعة في النفوس، ويحقّقوا انتشارها، وصارت هذه الفلسفات أدياناً في التاريخ والمجتمع، وخاصة الديانات الصينيّة والهنديّة القديمة، ومن هنا ظهرت الأديان الوضعية التي اخترعها الناس افتراء وكذباً وزوراً على ربّ العالمين، وكانت النتيجة أن تعدّدت الأديان، واختلط الحابل بالنابل، وظهرت الأديان السماوية بجانب الأديان الأرضية، والأديان المنزّلة إزاء الأديان الوضعية، والأديان الصحيحة معاصرة للأديان الفاسدة المزوّرة، ومن ذلك دين مسيلمة الكذاب وغيره من المتنبّئين الكاذبين.

٤ ـ التحريف والتبديل:

وتعرّضت الأديان السماوية الصحيحة المنزّلة للتحريف والتبديل والتغيير على يد فريق من الناس، الذين دخلوا الدين بدون إيمان ولا اقتناع، واعتنقوا الدين نفاقاً وتقية، وأعملوا معاول الهدم والتخريب في الأديان، فأحلّوا الحرام، وحرّموا الحلال، وافتروا على الله الكذب والزور والبهتان في الأحكام، حتى صار الرهبان أرباباً من دون الله ـ والعياذ بالله ـ

وانقلب التديّن من عبودية الله تعالى إلى عبودية البشر والطواغيت، كما نسبوا لله تعالى ما لا يليق به من الأسماء والصفات، ونسجوا على الأنبياء القصص الوهمية، والخرافات، وافتروا على الله تعالى الكذب في العقيدة، وشرّعوا الزور والبهتان في الأحكام.

٥ - شهوة السلطة:

وظهرت جماعات من المتديّنين أرادوا أن يشاركوا الحكّام والملوك والسلاطين في السلطة، وأنْ يتولوا المناصب والزعامات، فساروا في ركب الحكّام الظالمين، والطغاة المستبدّين، واستغلّوا نفوذهم الديني، ومركزهم اللاهوتي في مواكبة الظلمة، ومشاركة الطغاة والجبابرة، وكانت النتيجة أن يمقتهم الناس، وأن يديروا لهم الظهور، وأن يصبّوا عليهم اللعنات، وأن يسعوا للتهرّب منهم، والتخلّص من جورهم وظلمهم، وأن يطالبوا بإبعاد الدين الذي كان وسيلتهم في ذلك، وأن يفصل الدين عن الدولة والمجتمع والحياة.

٦ - رجال الدين:

وأراد بعض الحكّام والطغاة المستبدّين أن يركبوا موجة التديّن، وأن يستغلّوا الدين لسلطتهم، فامتطوا بعض ضعاف الإيمان من ذوي النفوس المريضة، ممن يعرف «برجال الدين» ويحمل شعار الدين، ويلبس رداءه، فقرّبوهم إليهم، وفتحوا لهم أبواب السخاء والرفاه، ثم سخّروهم لمطامعهم،

وجعلوهم أبواق دعاية لهم، يسبحون بحمدهم، ويسترون عيوبهم، ويضفون عليهم المساحيق البرّاقة، والبركات السخيّة، فكانوا أشبه بكلاب الحراسة للسلاطين، يقفون بجانب الظلمة، ويدافعون عن الظالمين، وحصروا الدين في بوتقة صغيرة، وفتحوا للناس نافذة ضيّقة، وطلبوا منهم الرؤية من خلال المنظار الذي أتيح لهم.

٧ ـ الجهل بالدين:

وأكبر عون على معاداة الأديان الصحيحة الجهل بها، لأنّ الإنسان عدو ما يجهل، وظهرت جماعات كثيرة تجهل الدين السليم، لكنّها لم تتخلّ عن التمسّك به، فوجدت حظّها بالتقاليد المتوارثة، والعادات السيّئة، والأعراف الباطلة التي صارت في نظر الناس ديناً ينقلونه من الآباء عن الأجداد، ثم يتوارثونه إلى الأبناء والأحفاد، حتى انقلبت حياتهم «الدينية» إلى وثنية سوداء، وشرك وضيع، وقد ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً، أولئك هم الأخسرون أعمالاً.

٨ ـ اتباع الشهوات والغرائز:

ولئن كان التديّن فطرة في النفوس، فإنّ النفس البشرية ذات نزعة ماديّة أيضاً، وأنّها تتركّب من عدد من الغرائز والشهوات، ويقوم العقل بإقامة التوازن بين الجانب الروحي والجانب المادي في النفس، فإنّ قصر العقل، وتخلف عمله

وترجّح جانب المادة، وتحرّكت الشهوات والغرائز، وانطلقت بدون حدّ ولا قيد، وسارت في طريق الغواية والشيطان، فإن هذا يؤدي إلى تجاوز حدود الشرع والعقل، وارتكاب المعاصي، والانغماس في المحرّمات، والغفلة عن أحكام الشرع، وتجاوز المقدّسات الدينية، مع الاعتراف بقرارة أنفسهم بالإيمان وصحّة العقيدة، والتقصير في أحكام الدين، ويسمّى هؤلاء بالعصاة والمذنبين، ولكنّهم يشكّلون ظاهرة مرضيّة خطيرة في المجتمع.

٩ ـ تمزيق الدين:

وظهرت جماعات كثيرة تؤمن بالدين، ولكنّها تأخذ بعضه، وتهمل بعضه الآخر، فتطبّق بعض أحكامه، وتتخلّى عن بعضها الآخر، تسلخ من الدين ما تشاء من الفروع بما يتّفق مع الأهواء والميول، فتلتزم به، وتدير ظهرها لما تشاء منه، فتمزّق الدين شرّ ممزّق، ثم تلجأ إلى أديان أخرى، أو فلسفات فكرية، أو قوانين وضعية، لتستورد منها ما تشاء، وترقّع بها التمزيق والثغرات بدون تنسيق ولا انسجام، ليصبح المنظر مقرفاً، والثوب مرقّعاً، والصورة مخزية، والهيكل مضحكاً وغريباً عن أهله، وعند غير أهله.

ولم يقتصر الأمر على الأفراد والجماعات، بل امتدّ إلى الدول والحكومات، التي قامت بنفس العمل السابق، وحاولت الجمع بين هذا وهذا، فضلّت وأضلّت، وأضاعت

شخصيتها، وفقدت هيبتها وتعسّرت في طريقها، واضمحلّ كيانها، لتصبح تبعاً لهذا وذ لك.

ويصدق على هذه الظاهرة قول الله تعالى: ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتّاب، وتكفرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلّا خزي في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردّون إلى أشد العذاب، وما الله بغافل عما تعملون، أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فلا يخفّف عنهم العذاب، ولا هم ينصرون ﴾ البقرة /٨٥ ـ ٨٦.

١٠ ـ التبشير والاستعمار:

واتّخذت بعض الدول في العصور الحديثة سياسة مزدوجة نحو الدين، فأعلنت الحرب عليه في الداخل، وقرّرت التخلّص منه، وإغلاق منافذه، ومنع تعليمه، واضطهاد رجاله، وتشويه سمعته، وإلحاق الشبه والأباطيل والمساوىء فيه، بينما تبنّت الدعوة إليه خارج البلاد، وأرسلت البعثات التبشيرية في شرق الأرض وغربها، وأمدتهم بكل ما يحتاجونه، فقام هؤلاء بالتبشير بالدين من جهة، وإماطة العقبات أمام الجيوش الزاحفة للاستعمار العسكري والسياسي والفكري والاقتصادي من جهة أخرى.

١١ ـ الإلحاد والعلمانية:

وظهرت في العصور الحديثة دعوات إلحادية كثيرة، ونجحت بعض هذه الأفكار الإلحادية في استلام السلطة،

وإقامة الدول على أساس الإلحاد والعلمانية، وأخذت على نفسها محاربة الأديان، بدون تمييز بين دين ودين. وكوّنت عن الأديان فكرة قاتمة سوداء، وأصدرت عنها شبهات داكنة في مبادئها وأحكامها، واستغلّت التاريخ الأسود عن بعض حقب التاريخ للأديان، وأظهرته للناس، كما نشرت الجانب المظلم للأديان الفاسدة الباطلة الوضعية، وحملت وزره إلى الدين بشكل عام، ورسمت للدين صورة مصطنعة اصطناعاً، تعلوها الرتوش الشيطانية، والهندسة الخيالية، وتحمل شارة الاستيراد من الخارج، مع كونها صورة بتراء لبعض الأفكار الدينية المحرفة، أو العصور المظلمة، وقرنت بهذه الصورة صورة لمّاعة برّاقة، تتجلّى في التقدّم العلمي ومعطيات الحضارة، والإنتاج الصناعي الحديث، والتقنيّة الفنّيـة، والمكتشفات العظيمة، والاختراعات المتلاحقة، والوسائل المتعدّدة التي يسخّرها الإنسان في حياته ومواصلاته، وتزيل عنه متاعب الماضي في مختلف اتجاهات الحياة، مما يخلب الأنظار، ويشغـل الفكـر، ويحجب كثيـراً من البسـطاء عن كشف الحقيقــة، والتعمّق في النـظرة، والبحث عن المتــاعب والمشاكل والأمراض النفسيّة والعقلية والجسميّة التي ترافق هذه الصورة، لكنه قفز إلى نفوس كثير من الناس، وخاصّة الشباب والمثقّفين أنّ الدين «موضة» قديمة، وقد ولّى زمانها، ولم يبق لها فائدة، وليس للإنسان حاجة إليها، ويمكنـه بسهولة ويسر الاستغناء عن الدين، وأعلنت دعوات الإلحاد

وجوب الاستغناء عن الدين وفصله عن الدولة، وإبعاده عن مجال الحياة، وتابعوا الشطط فقالوا: إنّ الدين والتديّن ظاهرة سيّئة، وعلامة على التخلّف، وهو سبب البلاء والتأخّر والجمود في كثير من البلدان، واستدلّوا على ذلك بأنّهم أصبحوا في عصر المدنيّة والحضارة، وأنّ العلم أساس كل شيء، ويحقّق للإنسانية كل شيء، ويحلّ محل الدين.

هذه بعض مظاهر الدين المرضيّة عبر التاريخ، وكانت عبارة عن شوائب تركت آثارها السيّئة على الحياة الإنسانية، وخلّفت وراءها بصمات سوداء فى جبين البشرية من جهة وعكّرت صفو الدين في النفوس، وألحقت به الأسقام والعلل من جهة أخرى، واختلفت حالات هذه العلل والأعراض من أمّة إلى أخرى، ومن زمن إلى آخر، ومن مكان إلى غيره، ومن دين إلى دين، وكانت في كثير من الأحيان أعراضاً قاتلة، وظواهر خطيرة، غيّرت وجه الدين، وقلبته رأساً على عقب: إمّا ذاتياً في مبادئه وقيمه وأهدافه، وإمّا في أهله وغير أهله، وتنكّر كثير من الناس للدين، وظهرت الأمواج العاتية حوله، مشكّكة في أهميّته وفائدته، وفي وظيفته وأحكامه.

وكانت النتائج المترتّبة على هذه الأمراض متفاوتة، فقد قضت هذه الظواهر على كثير من الأديان الباطلة، والأفكار السخيفة، والطقوس الفارغة، وقوّضت دعائم رجال الدين في الظلم والاستبداد والاستغلال باسم الدين، ووضعت حداً

للشذوذ والانحراف الذي وصل إليه بعض رجال الدين، وزالت الترهات التي ألصقت بالأديان كذباً وزوراً وبهتاناً، بينما كانت هذه الظواهر المرضيّة باعثاً ومحرّضاً لكشف الدواء الناجح للصحوة الدينية في أماكن أخرى، ودفعت الناس للبحث والتفتيش عن الدين الحق، والقيم الدينية الصحيحة، وزال كثير من الشوائب الغريبة عن أحكام الدين، وظلّ الدين الحق عند الأفراد والشعوب كوكباً درياً، ومصباحاً مضيئاً، وأملاً ساطعاً، يتطلّعون إليه، ويأملون فيه الخير والبر، والصلاح والإصلاح، وبقيت وظيفة الدين ناجحة ومحقّقة للسعادة لمن تمسّك به حقاً، ومؤمنة لمصالح الفرد والمجتمع، وتدرّجت النتائج في أنحاء الأرض بين هذا وذلك بمقدار صحّة الدين وبنسبة سلامة عقائده وقيمه ومبادئه، ولا يزال معظم الناس يعتقدون أنّ السماء هي مصدر الخير والإشعاع والسعادة.

وأخيراً نستطيع أن نقدّم خلاصة البحث، ونبيّن نتائجه التي تؤكد حاجة الناس إلى الدين، فنقول:

١ ـ إنّ الدين الذي نقصده ونعنيه ونسعى وراءه هو الإسلام بمعناه الكامل الشامل العام الذي نصّ عليه ربّنا سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ إنّ الدين عند الله الإسلام ﴾ آل عمران/١٩، وقوله تعالى: ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ آل عمران/٨٥.

ولا يمكن بحال من الأحوال أن نقبل الدين بالمفهوم الكهنوتي الكنسي الاستعماري المستورد الدخيل، بل إنّنا نبـرأ إلى الله من هذا المفهوم، والله بريء منه.

٢ ـ نحن بحاجة إلى الدين لأنّه جزء من فطرة الإنسان وطبيعته، ولا يمكن لإنسان سوي عاقل أن يستغني عن جزء من فطرته وكيانه، وإلّا كان شاذّاً ومنحرفاً.

قال تعالى: ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ الروم / ٣٠.

٣ ـ نحن بحاجة إلى الدين، لأنّه الوسيلة الوحيدة، التي نأمن مخاطرها، ونضمن نتائجها لتحقيق الحياة الإنسانيّـة الكريمة، وتأمين الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة.

٤ ـ نحن بحـاجة إلى الـدين لتأمين الاستقـرار النفسي والروحي في حياة الأفراد.

٥ ـ نحن بحاجة إلى الدين للحصول على التفتّح العقلي، والتقدّم العلمي، لأنّ الدين في جوهره دعوة إلى التقدّم والمدنيّة والحضارة والرقي في مختلف المستويات.

٦ ـ نحن بحاجة إلى الدين لإقامـة التوازن بين الفـرد والمجتمع، ولأنه يقيم العلاقة السديدة بين المواطن والدولة، فيعرف كل منهما حقّه فيقف عنده، فلا يخرج الفرد على

الدولة والمجتمع بالعبث والفساد والإجرام والتحكم بأرزاق الشعب والتلاعب بمقدّرات الأمّة وقوت أفرادها، ولا تتطاول الدولة على الفرد فتسلبه حقوقه الطبيعية والإنسانيّة، وتقيم الظلم والطغيان والتسلّط والديكتاتوريّة، لتجعل من الإنسان آلة صمّاء أو حيواناً أبكم لا يهتم إلا بطعامه وشرابه وشهواته، أو عضواً عاطلاً أو متكاسلاً أو متواكلاً أو سلبياً.

٧ ـ نحن بحاجة إلى الدين للقضاء على عبودية البشر للبشر، وللقضاء على التشريع الوضعي الذي تضعه فئة أو جماعة أو طبقة للتحكّم في غيرها.

٨ ـ نحن بحاجة إلى الدين للقضاء على الوثنيّات التي لا تزال سائدة في نصف المعمورة، وللقضاء على الديانات البدائيّة الباطلة التي يعتنقها مئات الملايين من البشر، دون أن يستطيع العلم أن يستأصل جذورها، فتجد في أهلها العالم والباحث والسياسي ورئيس الدولة وهو يعتنق البوذيّة أو يقدّس البقر ويشرب بولها.

٩ ـ نحن بحاجة إلى الدين للقضاء على جاهلية القرن العشرين عقيدة وسلوكاً، فكرة ونظاماً، ليعود الناس إلى ربّهم، ويخرجوا من الظلمات إلى النور.

١٠ ـ نحن بحاجة إلى الدين لإنهاء الردّة التي ابتلي بها العالم الحديث باسم العلم والعلمانية التي روّج لها الصهاينة منذ قرنين تقريباً.

١١ ـ نحن بحاجة إلى الدين الذي ينشيء ويربّي الإنسان الصالح، ويحقّق للإنسانية مثلها وقيمها وأخوتها، بدون تمييز عنصري، ولا تفاوت طبقي، ولا استعمار دولي، ولا اضطهاد فردي أو طائفي، ولا استغلال مادّي.

١٢ ـ نحن بحاجة إلى الدين لتنمية الوازع الديني عند الطبيب والمهندس والمحامي والمعلم والمدير والمدرّس والموظف والعامل ورب العمل والتاجر والطالب والأب والابن والأخ والجار ليشعر كل منهم بالآخر، وليؤدي عمله الذي خلق من أجله مع الحفاظ على القيم والأخلاق والمبادىء.

١٣ ـ نحن بحاجة إلى الدين لتحقيق التوازن في الإنسان بين روحه وجسده وعقله، ولإقامة التوازن بين غرائزه المختلفة، ولتوجيه ميوله وعواطفه الوجهة الصحيحة التي تحفظ الفرد وتخدم المجتمع والأمّة.

١٤ ـ نحن بحاجة إلى الدين الذي رضيه الله لنا ورضيناه لأنفسنا، وجاء به محمد ﷺ والتزمه أصحابه وأقاموا به المجتمع الإسلامي الفاضل، فحقّقوا العزة لأمّتهم، والنصر لدينهم، والفوز برضوان ربّهم.

نسأل الله العليّ القدير أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يلهمنا رشدنا، وأن يهيء لنا من أمرنا رشداً، وأنْ يسدّد خطانا، وأنْ يهدينا سبلنا، وأن يردّنا إلى ديننا ردّاً

جميلاً، وأن يهدي قومنا فإنّهم لا يعلمون، وأن يفتح بيننا وبين قومنا بالحق، إنَّه سميع مجيب، وبالإجابة جدير.

وآخر دعوانا أنّ الحمد لله رب العالمين

الدكتور محمّد الزحيلي

من آثار المؤلف

1 ـ وسائل الإثبات في المعاملات المدنية والأحوال الشخصية ـ رسالة دكتوراه ـ دار البيان بدمشق 1982/1402 .
2 ـ أصول الفقه الإسلامي ـ كتاب جامعي ـ الطبعة الخامسة 1991 م .
3 ـ وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه ـ دار القلم 1976 -1987 م .
4 ـ شرح الكوكب المنير في أصول الفقه، لابن النجار الفتوحي، أربع مجلدات ـ تحقيق بالاشتراك .
5 ـ أدب القضاء، ابن أبي الدم الحموي، تحقيق ـ الطبعة الثانية ـ 1980 م .
6 ـ العقود المسماة (شرح القانون المدني مقارناً بالفقه الإسلامي) ـ كتاب جامعي، الطبعة الثانية 1989 م .
7 ـ طرق تدريس التربية الإسلامية ـ كتاب جامعي، الطبعة الثالثة 1990 م .
8 ـ الإمام الجويني ـ من سلسلة أعلام المسلمين، دار القلم 1984 م .
9 ـ القاضي البيضاوي ـ من سلسلة أعلام المسلمين، دار القلم 1987 م .
10 ـ الإمام الطبري ـ من سلسلة أعلام المسلمين، دار القلم 1990 م .
11 ـ تعريف عام بالعلوم الشرعية، دار طلاس 1988 م .
12 ـ العلوم الإسلامية، دار المعرفة بدمشق 1991 م .
13 ـ الاعتدال في التدين، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية 1990 م .
14 ـ الإسلام والشباب، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية 1990 م .

الفهـرس